

عثمان بن عفان

ذو النورين

تأليف

عباس محمود العقاد

الناشر

مكتبة نوافل الفقه



شركة نوابغ الفكر ، القاهرة

البريد الالكتروني :

Nawabgh_elfakr@hotmail.com

هاتف: 25936402

فاكس: 27865553

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية :

عثمان بن عفان (ذو النورين)

تأليف: عباس محمود العقاد

ط-1 القاهرة : شركة نوابغ الفكر 2015

عدد الصفحات :

1- عثمان بن عفان ، عثمان بن عفان بن ابي بن امين ، 577-656

2- الخلفاء الراشدون

1-العنوان

رقم الايداع : 2015/16094

الترقيم الدولي:6-38-6415-977-978

بسم الله الرحمن الرحيم

على عهد

علم قراء هذه التراجم وجهتنا التي نتجه إليها في كتابتها، ولا نحسب أن أحدا ممن تتبعوها - أو تبعوا معظمها - ينتظر منها بحثا غير بحوثها التي عينناها، فليس يعيننا منها سرد الحوادث، ولا استقصاء البيان عن فترة من السنين، وإنما يعيننا من الحادثة التي نعرض لها، ومن الفترة التي نستبينها أنها وسيلة إلى مقصد واحد: وهو التعريف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية، أو حالة من أحوال النبل والأريحية، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره، فإنما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنساني، وتخرجه من غمار التيه^(١) والظلمة، وتسلك به مسلكا غير مسلك التخبط والضلال..

ونحن نقيس أثر هذه التراجم بمقياسين متقابلين، ب متعارضين متناقضين، ولكنهما ينتهيان إلى نتيجة واحدة..

نقيس أثرها بالرضى والقبول من الموافقين، ونقيسه بالسخط والنفور من المخالفين، وكلاهما دليل على أثر نغتبط به ونستزيد منه.. دليل على أن التراجم رمية أصابت مرماها. وهذا كل ما نبغيه.

ومن الملاحظات التي نغتبط بها خاصة أن جانب الرضى عن هذه التراجم غير مقصور على أبناء دين واحد أو أبناء نحلة^(٢) واحدة.. فتراجعنا لعظماء الإسلام قد اطلع عليها وتبعها أناس كثيرون ممن لا يدينون بالإسلام، وترجمتنا لغاندى قد كان أكثر قرائها من المسلمين، وهؤلاء وهؤلاء قد عرفوا وجهتها، ولم يخرجوا بها عن سبيلها، فليست النفس الإنسانية ملكا لأبناء دين واحد، وليس الكشف عن أسرارها وأغوارها^(٣) فريضة شرع واحد أو

(١) يأتي التيه بمعنى: الصلف والكبر وبمعنى الضلال وهو المراد هنا.

(٢) أى أعماقها وخبايها.

(٣) النحلة: الملة.

عرف واحد، وما من شيء يجعل للدين نفسه معنى إن لم تكن النفس الإنسانية ذات معنى وذات قيمة وذات علاقة أصيلة بهذا الوجود أجمع، فلا يضل معتقد عن هدى عقيدته حين يؤمن بجانب من جوانب عظمتها أو جانب من جوانب النبل والأريحية فيها. . والسؤال الذى يسأله من يعرف المسألة كلها هو:

- هل تستحق الحياة أن نعيهاها؟ . .

فإن كانت حياة الإنسان أهلا للثقة بها الإيمان بقدرها فالجواب نعم، وإن لم تكن ذلك فلا جواب للسؤال غير اليأس والضياع والانحلال.

بل نحن نرى أن الشاكين والمترددين يتوبون^(١) إلى طريق الأمل والرجاء كلما لمسوا للنفس الإنسانية جذورا عميقة فى أصول الحياة، وهذه الجذور نلمسها كلما علمنا أن النفس الإنسانية قابلة لعمل عظيم، وكلما علمنا أن قوة الاعتقاد بالخير هى نفسها عمل عظيم. وليس الخلاف إذا بين دين ودين، أو بين ذهب ومذهب، أو بين فلسفة وفلسفة، ولكنه خلاف بين حياة لها جذور، وحياة مستأصلة من جميع الجذور، وهو بعبارة أخرى خلاف بن حياة لها معنى، وحياة فارغة من كل معنى، ولو كان هذا المعنى من مخترعاتها الملققة وأباطيلها المزجاة^(٢).

نقيس أثر هذه التراجم بالرضى من هؤلاء المؤمنين بمعنى الحياة وهؤلاء الباحثين عن معناها. .

ونقيسه كذلك بسخط الساخطين وغيظ المحنقين^(٣)، وكلما اشتد هذا السخط، واضطرم^(٤) هذا الغيظ علمنا موقع الرمية من الهدف الصميم، فهو موقعها الذى أصبنا به المقتل من ذلك المعسكر الذى يسمى نفسه بمختلف الأسماء، ولا يصدق عليه اسم منها كما يصدق عليه اسم أعداء الإنسان. .

(١) أى يرجعون. (٢) أى الرديئة أو الزائفة. (٣) الخنق: الغيظ. (٤) اضطرم: التهب.

وإنما تصدق الأسماء حيث تصدق على الصفقات والأعمال، وقد سمي بأعداء النوع الإنسانى قديما معاشر من الخلق كانوا يكرهون النعمة ويعافون^(١) السرور، ويتجنبون معاشرة الناس، ولكنها تسمية لم تكن على صواب.. لأنهم كرهوا النعمة وعافوا السرور إيمانا بنعمة أشرف من جميع النعم، وشوقا إلى مسرة أرفع من جميع المسرات، ثم تجنبوا معاشرة الناس نبوا^(٢) بضماثرهم عن العيش الذى لا يعرف النعم والمسرات إلا فى أحضان الرذائل والشهوات، فمن شاء فليسم هؤلاء المتزمتين بما شاء من الأسماء إلا أن يسميهم بأعداء الإنسان.

أما أعداء النوع الإنسانى حقا فهم الحريصون على تصغير كل عظيم فيه، الملونون لكل صفحة نقية م صفحاته، العاكفون على هدم كل ما بناه فى تاريخه الطويل من قيم الأخلاق، وعقائد الخير والفلاح، الذين يعملون ما لا يعمله إلا عدو مغير على الأرض، يتعقب^(٣) بقايا أهلها كما يتعقب العدو اللدود جنسا من ألد الأعداء لجنسه، فلا يسره شىء كما يسره أن يرجع إلى ماضيه وحاضره بالتشويه والتخريب، وذم الحميد منه وتسجيل الذم المغيب..

ويبلغ المسخ^(٤) بهؤلاء المساكين أنهم يخلصون فى بغضائهم إخلاص الجنسين المتعادين بالطبيعة، فلا يقنعون بما يجدونه من العيوب والأدناس بل يتجسسون عليها ويلحون فى تأويلها، ولا يطيب لهم شىء كما يطيب لهم أن يظلوا الثناء على بطولة البطل وتفدية الشهيد وإيثار الكريم، فيردوه إلى الزرابة والمهانة، وتعليل الأمور بأسوأ العلل، وتفسيرها بأقبح البواعث والأغراض.. ومثل هذه اللجاجة^(٥) فى تلطيخ تراث الإنسانية كله بالأوزار

(١) أى يكرهون. (٢) أى تباعدا وتجاوبا. (٣) تعقبه: تتبعه وأخذته بذنب كان منه.

(٤) المسخ: تحويل صورة إلى صورة أقبح منها، ومن معانى المسخ: الضعيف الأحمق.

(٥) الخصومة.

والأدناس لا تصدر إلا من طبع سقيم وخليقة عوجاء، فيجوز لكل صاحب عقل أن يفهم بعقله علل الأعمال سامية أو مسفة^(١)، وعامة أو خاصة، ومخلوطة بالآثرة أو خالصة للإيثار، ولكن الهيام بتحقيق كل عظيم واتهام كل ثناء والحماسة المتشنجة لتغليب الخسة على النبل ونبس السمعة الماثورة عن جرائم النتن والقذى وليس المرجع فيه إلى فهم ودراسة، ولكنه يرجع إلى مسخ في الكيان يسليخ المبتلى به في مسالخ العدو الميين لنوع الإنسان.

وما كان في وسع إنسان حتى أن يسبغ الحياة كما يريد لها هؤلاء المسخاء المنكودون، ولكنهم فقدوا الثقة بالحياة المثلى فعوضوها ببديل منها لا يغنى عنها إلا إلى حين.. إن المنحدر من القمة إلى الهاوية يتحرك في انحداره، بل يتحرك سريعا إلى قراره، وهو في حركته هذه أسرع من الصاعد إلى القمة.. بجهده وهدايته، وأسبق منه جدا إلى غايته بل نهايته.. إلا أنها حركة المصاب بالحركة على الرغم منه، فلا وجه للمقابلة بين الصاعد المجاهد والهابط المقذوف كما ينقذف الجلمود^(٢)، وإن لاح لمن يراها أنها متحركان، وأن الهابط منهما أقدر من الصاعد على العدو والجريان..

وقد امتلأ مكان الثقة من نفوس هؤلاء المسخاء بسخائم^(٣) المقت والكراهية، فكانت له عوضا بئس العوض.. كانت لهم عوضا كعوض الحركة الهابطة من الحركة الصاعدة، وليس أدل على ضرورة الثقة للإنسان في اجتماعه وانفراده من حاجة هؤلاء إلى تعويضها بذلك الثمن الثقيل، وإنه لجد ثقيل في الحقيقة، فإنه لهم الانتحار بغير إرادة الانتحار.

ونحمد الله على نصيبنا من هذه الكراهية، كما نحمده على نصيبنا من تلك النعمة، فهذه وتلك كلتاها مقياس صادق لأثر هذه التراجم التي نزيدها

(١) أي رديئة. (٢) الجلمود: الصخر.

(٣) السخمة: السواد، والسخام: سواد القدر والسخيمة: الضغينة والحقد.

اليوم ترجمة جديدة، وسنزيدها بمشيئة الله كلما اتسع الوقت وأحسننا الرضى من هنا والكراهية من هناك.

إن سيرة الخليفة الثالث غط^(١) من أنماط متعددة زخرت بها الدعوة الإسلامية من سير الخلفاء وغير الخلفاء: أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وأبى عبيدة، وخالد، وسعد، وعمر، وأمثالهم من الصحابة والتابعين، ما منهم إلا من كان عظيما بمزية، وعلما من أعلام التاريخ، فأين كان موضع هؤلاء من العظمة ومن تاريخ بنى الإنسان لولا العقيدة الدينية ولولا الرسالة المحمدية؟

ليقل من شاء من فلاسفة التاريخ ما يشاء فى التعليل والتحليل والتلخيص والتفصيل، فمهما يقل القائلون، ومهما يشرح الشارحون، فليس من السهل على عقل رشيد أن يزعم أنها كلها خدعة وهم فى رؤوس أناس جاهلين. ولا حاجة هنا إلى الفلسفة ولا إلى الخذلقة^(٢) ولا إلى الجدل الطويل، فالقول الفصل بعد كل قول ووراء كل شرح: أن الوهم الخادع فى رؤوس الجاهلين خير ألا يكون. وماذا يبقى من تاريخ الإنسانية لو حذفنا منه هذه العوامل الحية وقلنا مع القائلين: أنها وهم من الأوهام كان خيرا لها أنه لم يكن ولم يكن بعده ما جرى فى مجراه؟

وفى هذه السيرة على ما نرجو، وعلى خلاف ما يخطر فى بال الكثيرين لأول وهلة، شواهد على هذه العبرة الكبرى أكبر من شواهد أخرى، فلعلها لا تبرز لنا عبقرية كعبقرية الصديق أو الفاروق أو الإمام، ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحة لا تطوى، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها إلى باعث غير باعث العقيدة والإيمان.

(١) نمط: أى نوع.

(٢) خذلق الرجل وتحذلق: إذا أظهر الخدق فادعى أكثر مما عنده.

الفصل الأول

بين القيم والحوادث

ربما كانت سيرة الخليفة الثالث - ذى النورين - أو فى السير بالشواهد على الخصائص التى تلازم تاريخ العقيدة فى أطوارها الأولى، ولا سيما أطوار التحول فى طريق الاستقرار..

وأبرز هذه الخصائص فى تاريخ العقيدة، إنه تاريخ قيم ومبادئ، وليس بتاريخ وقائع وأحداث..

فالوقائع والأحداث تتشابه فى العصور المتطاوله، ولو أننا تخيلناها معروضة فى الصور الصامته، لما وجدنا من فارق يذكر بين الوقائع والأحداث التى تفصلها من مسافة الزمن آلاف السنين، ومن مسافة المكان آلاف الفراسخ.. كلها صورة متكررة من حيث ظواهرها وأعراضها البادية للعيان، ولكنها تختلف اختلافا بعيدا حين ننفذ من ظاهرها إلى باطنها، أو حين ننفذ من حركاتها المكشوفة إلى القيم النفسية التى تكمن^(١) وراءها، وإلى الدعاوى التى تدور عليها، ولو كانت من دعاوى المبطلين، التى يصدق عليها فى بعض الأحيان: أنها كلمات حق أريدت بها أباطيل..

فالحوادث التى تدور على طلب السطوة^(٢)، غير الحوادث التى تدور على طلب الحرية، ولو كان طلب الحرية أكذوية يتعلل بها المتعلل لغاية فى نفسه يسترها ويعلن ما عداها.

فإذا كان المتعلل بالحرية مبطلا فى دعواه، فهناك فارق صحيح بين المعارك التى تذكر فيها الحرية حقا أو باطلا، والمعارك التى لا ترد فيها على لسان أحد ولا تخطر بباله، فلولا أنها أصبحت شيئا يهتم به الناس ويتنازعونه لما ذكرها الصادقون ولا المبطلون. ومتى أصبحت الحرية قيمة من القيم

(٢) السطوة: القهر بالبطش.

(١) أى تختفى.

المحسوبة فى حياة الأمم، فهناك دليل عليها من يتعلل بها صادقا ويتعلل بها كاذبا، ليخدع الناس بها عما يريد من ورائها.

وفى سيرة عثمان - رضى الله عنه - صدمة عنيفة تواجه كل باحث فى تاريخ صدر الإسلام، وتلك هى قتلته البشعة وهو شيخ وقور جاوز الثمانين. لم يكن عثمان أول خليفة قتل، فإن الفاروق عمر بن الخطاب قتل قبله غيلة^(١) وهو يقيم الصلاة..

ولكن مقتل عمر لم يكن صدمة فى تاريخ العقيدة. قتله غلام دخيل على الإسلام ومن ورائه عصاة تدين بغير دينه، وتكره منه ما عمله لإقامة ذلك الدين، فلا غرابة ولا صدمة، ولا شىء فيه غير الفاجعة^(٢) التى تفجع نفوس المسلمين..

أما تلك القتل البشعة^(٣) التى انتهت بها حياة الخليفة الثالث فشىء غير هذا، وشىء بعيد عن هذا فى صدمته المفاجئة لمن يتابع تاريخ العقيدة الإسلامية فى أطوارها الأولى..

لم يمض جيل على الإسلام ويقتل خليفة المسلمين هذه القتل؟ فماذا صنعت هذه العقيدة إذا بنفوس الحاكمين والمحكومين؟.. وماذا تغير من فتكات^(٤) الجاهلية بعد جهاد المؤمنين وإيمان الكافرين؟ والسؤال صدمة عنيفة..

ولكنه قائم على خطأ جسيم^(٥)، وإن يكن خطأ قريب التصحيح. فالعقيدة لا تبطل الخلاف والنزاع، ولا تسختم الوقائع والأحداث فى تاريخ، ولم يحدث قط فى دعوة إصلاح فى الدين أو غير الدين أنها قسمت

(١) اغتاله: أخذه من حيث لم يدر. (٢) الفاجعة: الرزية والمصيبة.

(٣) شىء بشع: أى كرهه. (٤) الفتك: القتل. (٥) أى عظيم.

التاريخ إلى عهدين: عهد سابق كان فيه نزاع وكانت فيه أحداث، وعهد لاحق يبطل فيه النزاع وتنقضى فيه الأحداث.

لم يحدث هذا قط ولا يحسن أن يحدث، فإنه لو حدث لكانت العقيدة المصلحة شللا معطلا لحياة الأمم، معوقا للتاريخ في مجراه المطرد^(١) إلى غير قرار.

إن العقيدة لا تلغى الحوادث والخصومات، ولكنها تجدد القيم التي تدور عليها الحوادث والخصومات.

وليست الخصومات شر ما يبغى به الناس، فشر منها الخسة^(٢) التي ترضى بالدون^(٣)، وشر منها الوفاق على الغش والمهانة، وشر منها شلل الأخلاق الذي لا يبالي صاحبه ما يحسن وما يقبح، وما يرضى وما يسوء، وشر منها الحياة بغير قيمة تستحق الخلاف عليها، وبغير معنى يتسع للبحث فيه.

فليس مطلوباً من العقيدة أن تبطل الخصومات، ولكننا المطلوب منها أن ترتفع بالنفوس عن الخصومة في غير شأن، أو ترتفع بها عن الخصومة في شأن هزيل ضئيل^(٤).

وعلى هذا ينبغي ألا تكون الخصومات والأحداث هي مدار البحث في تاريخ هذه الفترة، بل ينبغي أن يكون مدار البحث على القيم والمبادئ التي دارت عليها تلك الخصومات والأحداث.

ولا نقول: إن الفاجعة إذا تهون.

وغاية ما نقول: إنها تفهم على وجهها الصحيح، وأنها تفهم على وجه لا يريب^(٥) في عمل العقائد، وعمل العقيدة الإسلامية على التخصيص.

(٣) الدون: الحقيقير.

(٢) الخسة: الدناءة.

(١) أى المستمر.

(٥) لا يشكك.

(٤) ضئيل: صغير.

لقد كان مدار الخصومة على محاسبة الإمام: محاسبة الرعية لإمامها، ومحاسبة الإمام لنفسه، وكل أولئك شيء جديد في التاريخ، وكل أولئك شيء يقيم ويقعد في حياة الأمم، ولا سيما حياتها في أطوار العقيدة الأولى.

أين كان أبناء الجاهلية من حق الحساب بين الحاكم والمحكوم؟

أما في البادية فقد كان الحساب كله على شريعة^(١) الثار والانتقام، وإغارة القبيلة الكبيرة على القبيلة الصغيرة، وكان الغالب على الفرد أن يعيش في كنف قبيلته، تحميه إن استطاعت، أو تخلعه إن عجزت عن حمايته. وقد شاع في العصور الحديثة كلام كثير عن الحرية البدوية ولم تفهم على حقيقتها مع كثرة الكلام فيها، فما كانت الحرية البدوية قط قائمة على حق إنساني تحميه الشرائع والآداب، ولكنها كانت أشبه شيء بانطلاق المادة حيث لا عائق^(٢) لها مما حولها، ومثل هذه الطلاقة طلاقة العصفور في فضائه، والحيوان الأبد^(٣) في صحرائه: طلاقة المادة حيث لا حواجز ولا سدود..

وأما الحكومات التي قامت في الجزيرة العربية، على نحو من نظام الملك والإمارة، فقد كانت شريعتها - على خلاف المظنون - طغيانا مطلقا من جميع القيود، وكان بعد ملوكهم يتخذ من أهوائه ونزواته شعائر يدين بها الناس في مسائل الحياة والموت، فكان المنذر بن ماء السماء يجعل له يوم نعيم ويوم بؤس، ويقتل كل من يسوقه إليه الحين^(٤) في يوم بؤسه ولو كان عابر طريق، وكان يسكر ويأمر بالقتل فينفذ لساعته ولا يدرى بعد إفاخته فيم كان هذا العقاب إن صح أن يسمى بالعقاب. وحدث أن حجر بن الحارث فرض على بنى أسد أتاوة^(٥)، فتمردوا عليها، فباستباح أحياءهم، واعتقل رؤساءهم، وأقسم ليقتلنهم بالعصا هوانا^(٦) بهم عنده أن يقتلهم بالسيف أو

(١) أى طريقة. (٢) أى حائل. (٣) الأبد: مفرد أوابد، والأوابد: الوحوش.

(٤) الحين: الهلاك. (٥) الأتاوة: الخراج. (٦) هوانا: أى استخفافا بهم.

السلاح، فسموا من أجل ذلك بعبيد العصا، وقال شاعرهم عبيد بن الأريص
يستشفع فيهم:

ومنعتهم نجدا فقد حلوا على وجل^(١) تهامة
أما تركت تركت عوف سوا أو قتلت فلا ملامة
أنت المملك فسوقهم وهم العبيد إلى القيامة

وكان عمرو بن هند يكلم الناس من وراء ستور^(٢)، وكانوا يضربون
المثل بكليب وائل في عزته، فيقولون عن العزيز البالغ في العزة: «إنه أعز من
كليب وائل».. لأنه كان يحمي الكلاء^(٣) فلا يقرب حماه، ويمر بالمكان
يعجبه، فيرمى عنده بكليب^(٤) وينادى بين القوم: إنه حيث بلغ عواؤه كان
حمى لا يرعى.. وكانوا يقولون: «لا حر بوادي عوف» لأنه كان من عزته
يقهر كل من حل بواديه، فكلهم عنده كالعبيد..

وأصبح من ذلك ما روى عن عمليق ملك طسم وجديس، فإنه كان يأمر
ألا تزف الفتاة إلى بعلها^(٥) قبل أن تزف إليه، وفي ذلك تقول إحدى هؤلاء
الفتيات:

يجمل ما يؤتى إلى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد الرمل؟

إلى أشباه هذه المظالم التي أجملناها في كتابنا عن الديمقراطية في
الإسلام، وقلنا معقبين عليها: إنها روايات لم تخل من إضافات القصة
والخيال كجميع روايات التاريخ القديم المنقول بالتلقين والإسناد «ولكننا نشبها
ونعول عليها، لأن الفكرة هنا أبلغ من الخبر، أصدق من وثائق الأوراق، فلو
لم تكن فكرتهم الغالبة عن الحكم أنه عزة وخيلاء لا تكملان لصاحبهما بغير

(١) الوجل: الخوف. (٢) جمع متر. (٣) العشب رطبا أو يابسا.

(٤) كلب صغير. (٥) البعل: الزوج.

إذلال الأعزاء،، وتمحل (١) الذرائع (٢) للعتو (٣) والإيذاء، لما تواترت أنباء الملوك على هذه الوتيرة (٤) . . .» .

ومن هذه الفكرة المتواترة عن سلطان الحكم إلى محاسبة الخليفة على كل صغيرة وكبيرة فى شؤون الدولة بون بعيد، وشيوعها بين الخاصة والعامه حتى يتصدى للحساب صغير القوم وكبيرهم على السواء، هو الفتح الذى جاءت به العقيدة الإسلامية على أعقاب الجاهلية، وعلى مسمع من طغيان الأكاصرة والقياصرة والتبابعة (٥)، فى الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وسنرى أنهم كانوا يحاسبون الخليفة على الزيادة فى حمى المرعى المتروك، لا بل الصدقة بعد تكاثرها ومضاعفة عددها، وسنرى أنهم كانوا يحاسبون واليا من أكبر ولاته - وهو والى الشام معاوية بن أبى سفيان - لأنه سمى مال الدولة مال الله بعد أن كان يسمى بيت مال المسلمين، وأشفقوا أن يكون تغيير الاسم تمهيدا لاستئثار الحاكم بالتصرف فيه، وكف المسلمين أصحاب المال عن المحاسبة عليه . .

هذه المحاسبة بين الحاكم والمحكوم قيمة كبيرة نشأت مع العقيدة المحمدية، وهى قيمة كبيرة على جميع حالاتها من الصدق فيها أو التذرع بها إلى غرض قد يخفيه أصحاب الذرائع والتعلات، فإن القانون يصونه أناس مخلصون، ويدعى غيرهم صيانتهم كاذبين مدلسين (٦)، ولكن القانون على الحالين كسب عزيز لا يستهين به عاقل، ولا يقول أحد بالاستغناء عنه من أجل الكذب به أو الكذب عليه، وكذلك كل قيمة غالية من قيم الحياة الإنسانية كالفضيلة والخير والحرية والصدق وبما شابهها من فتوح الضمير فى آماذ (٧) التاريخ، مما يحرص عليه الناس، أو يصطنعون الحرص عليه، فإنما

(١) التمحل: الاحتيال . (٢) الذرائع: الوسائل . (٣) أى مجاوزة الحد .

(٤) الوتيرة: الطريقة . (٥) ملوك اليمن . (٦) مدلسين: أى غاشين .

(٧) الأمد: الغاية والتمهى والغضب، والأمد: المملوء من خير أو شر، والسفينة المشحونة .

تكسبها الإنسانية بالتعارف عليها، وقبولها أو قبول مقاييسها، ولن تكون القيم جميعا إلا من هذا القبيل. وعلى هذا المثال.

ولقد كان من الناهضين^(١) لمحاسبة عثمان - رضى الله عنه - أناس مغرضون يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون غير ما يقولون: كان منهم من أقام عليه الحد. ومن حبس أباه فى جريمة. ومن فرق بينه وبين حليمة تزوجها على غير الشريعة، ومن أبى عليه الولاية، ومن لم يصنع به الخليفة أمرا من هذه الأمور ولكنه كان منطوى النية على الفساد والإفساد.. وكل هذه المآرب^(٢) قد شبيت^(٣) بها حركة المحاسبة على أعمال الخليفة، فكانت عيبا للحركة، ولكنها لم تكن عيبا لحق المحاسبة، ولا إرراء^(٤) بشأنه، ولا بالشأن الذى كسبته الأمة من تقريره والتعارف عليه، ولولا أنه حق لما تعلل به المبطلون..

وأفة البحث فى تطور الأخلاق والقيم الإنسانية، أن يتولاه من لا يفقهون قيمة النهى عن شىء بعد أن كان مباحا غير منهى عنه. ولا يخطر النهى عنه على بال أحد، فإقامة الحدود التى يؤخذ الناس بالتزامها، وينهون عن تجاوزها، هى عنوان الدوافع الباطنية التى غيرت حياتهم، وغيرت نظراتهم إلى الأعمال والأخلاق، فأعلنوها فى تلك الحدود.

وأضل من هؤلاء من يبحثون فى تطور الأخلاق، فيأخذونها بالعناوين ويطلقون العنوان الواحد على صفتين مختلفتين أو متناقضتين، ويكاد القس راشدال Rashdall أن يزن الأطوار الأخلاقية بهذا الميزان حيث يقول: «إن ندر من رذيلة أو جريمة إلا كانت فى زمن من الأزمنة منظورا إليها كأنها واجب من واجبات الديانة أو العرف، كالسرقة التى كانت تحسب فضيلة من الناشئة الأسبرطية ومن الطائفة الهندية التى تسمى بطائفة الخناقين، وقد كانت

(١) أى القائمين. (٢) أى المقاصد والغايات. (٣) شبيت: أى خلطت.

(٤) الأزراء: التهاون بالشىء.

القرصنة - وهى سطو^(١) وقتل - صناعة محترمة فى العالم القديم، وكان الاضطهاد الدينى فى القرون الوسطى أشرف الواجبات».

وليس من الميسور فى هذا المقام أن تفصل وجوه الخلاف بين الإباحة القديمة والتحرير الحديث فى جميع هذه الفعال والخلال. ولكننا نكتفى بما يستطاع بيانه بغير حاجة إلى الإفاضة والإسهاب^(٢) كالقرصنة ما بين العصرين القديم والحديث. فهل القرصنة التى نحرمها اليوم هى القرصنة التى كانت مباحة بالأمس، أو هما نقيضان باسم واحد مشترك بينهما بوهم الاصطلاح؟.

الواقع أن قرصنة الأمس كانت حقا كحق صاحب الملك الذى تسطو عليه، إذ كان صاحب الملك يجمع بضاعته بالسطو على قبيلة أو عشيرة أضعف منه، وأعجز عن الهجوم والدفاع، فإن كان فيما يملكه شىء مصنوع فهو من صنع العبيد المسخرين فى أرضه أو معمله، وكلهم من أسرى الحرب المغتصين من أبناء القبيلة التى قهرت، لأنها عجزت عن مقاومته ودفعه. فحقه فى بضاعة السفينة كحق القرصان فى السطو عليها، وليس هذا الحق الذى يستطيع القرصان فى العهد الحديث أن يدعيه ويقبل التعارف عليه..

ويصدق على سرقة الناشئة^(٣) الإسبرطين ما يصدق على القرصنة فى العصور القديمة، ويمكن أن يقال كذلك إن الاضطهاد الدينى فى العصور الوسطى غير الاضطهاد الدينى فى العصر الحديث، لأن العمل لا يعتبر رذيلة^(٤) أو جريمة إلا إذا كان فيه نقض لقيمة أخلاقية مصطلح^(٥) عليها، ولم يكن التسامح ولا الحرية الفكرية قيمة مصطلحا عليها فى العصور المظلمة بين الأوروبيين. سواء منهم المضطهدون ومن يقع عليهم الاضطهاد، فلو أن أحدا من الذين وقع عليهم الاضطهاد ظفر بمخالفه فى العقيدة لاضطهدهم كما

(١) أى قهر وعدوان. (٢) الإسهاب: كثرة الكلام. (٣) الناشئة: من جاوزوا حد الصغر.

(٤) الرذيلة: ضد الفضيلة. (٥) أى متفق.

اضطهدوه وقسروهم^(١) على التصديق بعقيدته كما قسروه، وكلا الفريقين يستعيد من حرية الفكر على اعتبارها تفریطاً في الغيرة على الدين.

فالقِيم الأخلاقية والوجدانية هي الجوهر المهم في تطور الأخلاق، وليست هي الأسماء والعناوين، ومتى ظهرت «القيمة» في أمة فهي مكسب حق لا شك في نفعه أيا كانت نية المنادى به على الصدق أو على الخداع. فلو لم يكن الذهب ذا قيمة لما استحق أن يزيفه المزيفون..

ومحاسبة الحكام كانت قيمة جديدة بين العرب وسائر المسلمين في الصدر الأول من الإسلام. فنادى بها الخاصة والعامة وادعاهم الصادق والكاذب، وظلت عاملاً مهماً في السياسة أيام الخلافة وبعد أن صار الحكم ملكاً يتوارثه الأبناء عن الآباء..

أما الخليفة عثمان - رضى الله عنه - فأثر العقيدة فيه وهو فرد، أوضح من أثرها فيمن قدموا إليه من الأمصار ليناظروه ويحاسبوه. وهو واحد من آحاد معدودين لم يكن في وسع العقل أن يتخيلهم في جاهليتهم على حالتهم التي ارتفعوا إليها بعد الإسلام..

إنه كان من سلالة^(٢) الأمويين، وهي سلالة اشتهرت في الجاهلية بالحرص على المال لا تبذله في غير مأرب أو متعة، ولم ينهض أحد منهم بتكاليف المروءة والسخاء إلا منافرة لمن ينافسهم بين الملأ. وغيره منهم أن يسبقوه إلى المجد والثناء. فلما أسلم عثمان - رضى الله عنه - كانت شهرته الكبرى بالسخاء والأريحية. فنزل عن ماله لتسيير جيش في سنة العسرة. ونزل عن ماله لشراء بئر يستقى منها المسلمون بغير ثمن، ونزل عن ماله لتوسعة المسجد، ونزل عن ماله لحمل المغارم وإغاثة الملهوف والبر بالأقربين والأبعدين..

(١) أى أجبرهم. (٢) أى نسل.

ومذهبه في محاسبة نفسه قد تتعارض فيه الأقوال والتأويلات. ولكنه في الأمر الثابت الذي لا جدال فيه قد بلغ الذروة^(١) من محاسبة النفس والتخرج من المساس بالحياة البشرية ول في سبيل الذود^(٢) عن حياته وحياة أقرب الناس إليه. . فلما أيقن من القتل أبى أن يبقى في داره من يقتل أحدا ممن يحيطون بها ويعالجون اقتحامها^(٣) لاغتيااله، ولما سئل أن يتنحى عن الخلافة أبى أن يتنحى عنها، ولم يكن إياؤه^(٤) ضنا^(٥) بشيء يحتويه. فلا شيء أغلى من الحياة وقد هانت عليه. ولا يزعم أحد أنه غنم من الخلافة مالا، بل يتفق المؤرخون على أنه ترك الدنيا وماله أقل مما كان لديه يوم ولى الخلافة. ولكنه أبى أن يخلع نفسه حذرا من أن يحمل جريرة^(٦) الخلع وما يعقبه من النزاع والقتال. وقد صرح بذلك غير مرة فقال: إنه يخشى على الذين يستطيلون أيامه أن يتمنوا بعده لو كان يومه مائة سنة، فلا يبوءن^(٧) بالعاقبة المحذورة وهو مختار.

فإذا تركنا الحوادث جانبا ونظرنا إلى التاريخ في صدر الإسلام على أنه تاريخ قيم ومبادئ. قلنا أن نقول أننا أمام فواجع مؤلمة. يود الناظر إليها لو يزوى^(٨) بصره عنها، وليس لنا أن نقول أننا أمام صدمة يصطدم بها من يسأل عن أثر العقيدة وأطوارها، فلا صدمة هناك إذا نحن وزنا الحوادث بميزان القيم وعلمنا أن التاريخ لن يخلو من الحوادث، وأن حوادث الخلاف ليست بأكبر الشرور التي تبتلى بها ضمائر بنى الإنسان.

(١) الذروة: القمة. (٢) الذود: الدفاع. (٣) أى يحاولون دخولها. (٤) إياؤه: رفضه.
(٥) إمساكا أو تمسكا. (٦) الجريرة: الذنب والجناية. (٧) أى يرجع. (٨) أى يقبض.

وبعد الصدمة

وليست الصدمة العنيفة بالخائل الوحيد دون توضيح هذه الفترة وتمحيص أسبابها وعواملها وتبعات المسئولين عنها، فالصعوبة الكبرى أننا فى هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منهما إلى أسبابه وعوامله، ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الأسباب والعوامل..

هذان الحادثان هما: التطور السياسى، ومقتل عثمان -رضى الله عنه-، وأسباب هذا لا تكفى لتعليل ذلك، وليس من الحتم أن تؤدى إليه.. وقد طال الجدل حول عمل عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء وأثره فى هذه الفترة، فرأى بعض المؤرخين أنه أهون من ذلك، لأنهم اعتقدوا أن الانقلاب السياسى ومقتل عثمان حادث واحد له أسباب واحدة، وليس هو كذلك. ولو أنهم فصلوا بين الأسباب فى كليهما لأمكن تقدير التبعة والاستطاعة فى عمل كل عامل، ودسيئة^(١) كل مشترك فى المؤامرة.

فابن السوداء ولا شك أهون من أن يحدث التطور السياسى، وغيره ممن هو أعظم منه شأنا وأشد منه خطرا أهون من إحداث ذلك التطور كله، سواء تعمده^(٢) أو عملوا له غير عامدين، لأنه يرجع إلى أسباب متفرقة عميقة اقرار، كثيرة الشعب، لا تضطلع^(٣) بها قدرة رجل واحد ولا عدة رجال متألين^(٤) متواطئين^(٥)..

ولكن مقتل عثمان شىء آخر غير التطور السياسى، وفى وسع ابن السوداء ومن هو أقل منه أن يقترفه بيده وأيدى من يستمعون لتحريضه وسيسته، لأنه فى حقيقته «مشاغبة» من مشاغات الدهماء^(٦) التى لا تعجز عن أمثال هذه الأفاعيل.

(١) الدس: الإخفاء. (٢) أى قصده. (٣) أى تقوم. (٤) التآليب: التحريض والإفساد.

(٥) وإطاه على الأمر: وافقه. (٦) من معانى الدهماء: العدد الكثير، وجماعة الناس.

والذين يقرأون فاجعة عثمان، ويلمون بالتاريخ، يسبق إلى خيالهم ما قرأوه عن مصارع رؤساء الدول في إبان^(١) الثورات والفتن القومية: كالثورة الإنجليزية مع شارل الأول، والثورات الفرنسية مع لويس السادس عشر. وغيرهما من الثورات في العالم القديم والعالم الجديد.

ومتى سبقت إلى خيالهم هذه الصورة، حسبوا أن الثورة التي أفضت^(٢) إلى مقتل رئيس الدولة في الأمتين كالثورة التي أفضت إلى مقتل رئيس الدولة الإسلامية في صدر الإسلام، وبينهما في الواقع فارق بعيد أبعد من فارق الزمان والمكان.

إن الثورة التي أطاحت بشارل الأول قد اجتمعت فيها قوة الأمة بأسرها على وجه التقريب أمام قوة العرش وأنصاره من النبلاء. وقد كانت هناك حرب وهزيمة غلبت فيها إحدى القوتين، وانهزمت فيها القوة الأخرى.

وهكذا حدث في الثورة الفرنسية التي أطاحت بلويس السادس عشر. وهكذا حدث في ثورات كهذه بالقارة الأمريكية والعالم القديم.

أما مقتل عثمان - عليه الرضوان - فلم تكن فيه حرب بين قوة الدولة وقوة الأمة، ولم تتقابل فيه قوى الحكومات الإسلامية وقوى الأمم في البلاد العربية وغير العربية، وغاية ما يوصف به أنه «حادثة محلية» قد تتم على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء، وقد يستطيعها ابن السوداء ومن هو أقل من ابن السوداء.

وعلى سبيل الإيجاز الذي يغنيننا عن الإسهاب في المقارنة والمناقشة نقول: أن عثمان - رضى الله عنه - ما كان ليقتل لو كانت داره محروسة حراسة الدور التي يقيم فيها ولاة الأمور، وأن هذه الجمهرة التي اقتحمت داره واجترأت^(٣) عليه بالسلاح ما كانت لتقتل واليا من ولاته - كمعاوية بن أبى

(١) إبان: وقت. (٢) أى أدت وانتهت. (٣) أى تجرأت.

سفيان في الشام مثلاً - لو أنها هجمت على داره بين حرسه وأجناده، فلا محل هنا للموازنة بين قوى الدولة وقوى المشاغبة أو الفتنة، ولا محل كذلك للموازنة بين عوامل الانقلاب السياسي وعوامل الدفاع عن شخص الخليفة في داره، فكل عوامل الانقلاب لم يكن من الحتم أن تؤدي إلى مقتل الخليفة ولو بلغت أضعاف ما كانت عليه، وقد كانت المشاغبة التي جنت جنايتها على حياة الخليفة كافية لاجتراح^(١) هذه الفعلة ولو لم يكن وراءها كل عوامل التطور التي كانت تجمع هنا وهناك في تلك الفترة الفاجعة، وقد بقيت عوام التطور وازدادت بعد انتهاء عهد الخلفاء الراشدين وقيام الملك الموروث، فلم ينجم عنها مقتل ملك أو وال من كبار الولاة في بقاع الدولة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها .

فمن الواجب إذا عند إحصاء الأسباب والتبعات، والكلام عما يستطاع وعمن يستطيعه أن نفرق بين الحادئين وأن نرجع بالتطور السياسي إلى أسبابه وعوامله التي تبلغ ما تبلغ، ولا يلزم منها أن تؤدي إلى مقتل ولي الأمر في عاصمته، وأن نرجع بمقتل ولي الأمر إلى أسبابه وعوامله التي قد تحدث مع ذلك التطور وقد تحدث منفصلة عنا في كل طور من أطوار القلق والتذمر^(٢)، مما يدوم أو ينقضي بانقضاء أوله، ثم لا يعود في عصره.

(٢) التذمر: الغضب.

(١) أي لارتكاب.

أسباب ولا أسباب

على أن الأسباب التي ذكرت للحادثين جميعا لا تزال في حاجة إلى إعادة نظر، لأنها إما أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها، أو يجتهد بها المجتهدون بغير روية^(١) في مواردها ومصادرها، وأما أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها إلا لاقترانها بأحوال تلك الفترة، ولو جاءت في فترة أخرى لما كان لها ذلك الأثر.

خذ لذلك مثلا أسباب الفتنة كما ذكرها معاوية لابن الحصين . . سأله حين وفد عليه: «ما الذي شئت^(٢) أمر المسلمين وخالف بينهم؟». قال ابن الحصين وكأنه أراد أن يوافق هواه: «قتل الناس عثمان!». قال معاوية: «ما صنعت شيئا» فعاد ابن الحصين يقول: «فمسير طلحة والزبير وعائشة وقاتل على إياهم». قال معاوية مرة أخرى: «ما صنعت شيئا». فقال الرجل: «أعندى غير هذا يا أمير المؤمنين». قال معاوية: «فأنا أخبرك. إنه لم يشتت بين المسلمين ولا فراق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر، وذلك أن الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فعمل بما أمره الله به، ثم قبضه الله إليه، وقد أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيهم رسول الله ﷺ لأمر دينهم، فعمل بسنة الرسول، وسار بسيرته حتى قبضه الله، واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته، ثم جعلها شورى بين ستة نفر، فلم يكن منهم رجل إلا رجاها لنفسه ورجاها له قومه . . ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف».

كذلك روى ابن الحصين عن معاوية، وجاء أناس من ذوى النظر في الحكمة والتاريخ فقالوا بما قال به معاوية ومنهم محمد بن سليمان المتفلس فيما رواه عنه ابن مكى الحاجب. قال ما فحواه^(٣): إن اختيار الستة من أهل

(١) أى نظر وتفكر. (٢) أى فرق. (٣) أى ما معناه.

الشورى ليكون الخليفة واحدا منهم بعد مقتل الفاروق قد جعل كلا منهم يشرئب^(١) إليها، ويعلم أنه أهل لها، وكان أشدهم عملا لها وكيدا لعثمان طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمى الملقب بطلحة الجود، فهو من أبناء عمومة أبى بكر، محبوب لسخائه وشجاعته وسبقه إلى الإسلام. وكان ينافس عليها الفاروق فضلا عن جاء بعده، ويرى أن أبا بكر كان خليقا^(٢) أن يكلها إليه^(٣)، وأنه إذا فضل عليه عمر فليس بعد عمر من يفضله، وأعانه الزبير لأن منافسة على وعثمان إذا وليا الخلافة أشق عليه من منافسة طلحة إذا هي ألت^(٤) إليه.

وكان أناس من المجتهدين يتابعون محمد بن سليمان المتفلسف على هذا الرأى، أو يتابعون معاوية بن أبى سفيان أول من قال به وذهب إلى تخطئة عمر فى نديه لأهل الشورى، ولم تزل منهم بقية فى عصرنا هذا ترى الحصافة^(٥) والحكمة فيما قاله معاوية، منهم الأستاذ محمد أحمد جاد المولى الذ كان كبيرا للمفتشين بوزارة المعارف، فهو ينقل كلام معاوية فى كتابه «إنصاف عثمان» ثم يتبعه قائلا: إنه رأى «الخصيف المجرب الذى حلب الدهر أشطره، وغلب برأيه ودهائه صاحب الحق على حقه. وأقام دولة الإسلام على تخوم^(٦) دولة الروم موطدة الأكتاف قوية الدعائم. وحاش لعمر أن يتهمه أحد فيما فعل، فإنه لم يرد إلا الخير للمسلمين جاهدا، وكان أعظم ما يرجوه من ذلك ألا يكون خلاف وافتراق بين المسلمين. . وأكبر الظن عندنا أن عمر لو كان فى حال غير هذه فرما فضل أن يريح المسلمين من العناء^(٧) والمناوشات الحزبية. ويعهد إلى من هو أهل للخلافة. فقد يجد الناس لهذا التعيين حرمة تسكت الألسنة والدولة لا تزال فتية، أعدى أعدائها الشقاق والانقسام. .».

(١) اشرب إلى: مد عنقه وتطلع. (٢) أى جديرا. (٣) أى يسندها إليه.
(٤) أى انتهت إليه. (٥) حصف: استحكم عقله فهو حصيف، وأحصف الأمر: أحكمه.
(٦) تخوم: حدود. (٧) أى التعب.

هذا سبب من أشهر الأسباب المذكورة، تواتر القول به من أيام الفتنة إلى العصر الحديث، ولو كانت الأسباب التاريخية تهمل على قدر وهنها وظهور الغرض فيها، لا ورد لهذا السبب ذكر على لسان بعد إفضاء معاوية به إلى أبي الحصين، إلا أن يكون ذكره لتوهينه والكشف عن غرضه، وهو مكشوف لا يجهد من يريد أن يلتفت إليه.

فمعاوية لم ينكر الشورى في اختيار الخليفة إلا لأنه أجمع العزم على خطة ولاية العهد، ورشح لها ابنه يزيد من بعده، وما كان في هذه الخطة حصافة ولا تجربة لأنها لم تلبث أن أوقعت الخلاف في أقرب الأقربين إلى معاوية، وساقتهم إلى تولية العهد اثنين بدلا من ولى عهد واحد، ولم تحسم الخلاف بين بنى أمية فضلا عن حسم الخلاف بين قريش وبين سائر المسلمين.

وقد قال الشعبي: إن عمر لم يمت حتى كانت قريش قد ملته (١) لقمعه (٢) رؤساؤهم وحبسه إياهم بالحجاز خوفا من فتنهم بالدنيا وفتنة الدنيا بهم، فإذا كانت هيئته في حياته قد سكنت بهم عن الخلاف، فهم مختلفون بعد موته لا محالة، ولو أنه اختار للخلافة أحدا سماه لما اختار طلحة ولا الزبير لأنه لم يذكرهما فيمن تمناه للخلافة من الموتى ولا من الأحياء. فقال: إنه كان يختار أبا عبيدة لو عاش، لأنه سمع رسول الله يدعو أمين الأمة، أو كان يختار سالما مولى أبي حذيفة لو عاش لأنه رأى رسول الله يقدمه للضلاة بالمهاجرين. فلما سمي من يحسبهم مرشحين للخلافة من الأحياء سمي عليا وعثمان ولم يجاوزهما إلى غيرهما من الستة أصحاب الشورى. فقال لعلي: «اتق الله يا علي إن صارت إليك، ولا تحمل بنى هاشم على رؤوس الناس» وقال لعثمان: «اتق الله يا عثمان إن صارت إليك، ولا تحمل بنى معيط على رؤوس الناس» وما نحسبه سكت عن طلحة إلا عامدا وعلى علم بأن اتفاق الستة لا يجمعون عليه وتقية (٣) أن يظن ظان أنها وقف على بنى

(١) ملته: ستمته. (٢) يأتي القمع بمعنى: الضرب، والقهر والإذلال. (٣) أى حذرا.

تيم، ويقينا منه أن اتفاق الستة على واحد أخرى^(١) أن يلزمهم الطاعة لمن يتفقون عليه.

وإذا كان في كلام معاوية لأبي الحصين حصافة المعية^(٢) فتلك هي إشارته المقصودة إلى التفرقة بين أمور الدين وأمور الدنيا، واعتباره أن تقديم النبي ﷺ أبا بكر للصلاة بالناس بمثابة الرضى عنه لأمر دينهم فأضاف الناس إليه الرضى عنه لأمر دنياهم، ويصح من ثم أن يكون المرضي عنه لهذه غير المرضي عنه لتلك، وهذا هو المدخل إلى ولاية الملك لأمثال يزيد وعقبة^(٣) مع وجود من هم أفضل منه دينا من جلة^(٤) الصحابة والتابعين.

ونعدل^(٥) عن الأسباب المزعومة أو الأسباب التي اجتهد بها المجتهدون إلى الأسباب الواقعة التي حدثت، وكان لها أثر في إهاجة الخواطر وتسويغ الانقلاب، ومنها ما يتعلق بأمر الدين، ومنها ما يتعلق بأمر الدنيا، أو أمور الحكم والسياسة:

فمن الأمور التي تتعلق بالدين، أن الخليفة الثالث زاد النداء في الأذان لصلاة الجمعة، وأنه أتم الصلاة في منى وعرفة، وكان النى والخليفتان الأولان يقيمونها على القصر، وقد صلاها عثمان نفسه في أول خلافته ركعتين، ومنها، أنه جمع القرآن الكريم في نسخة، وأمر بإحراق ما عداها في المدينة والأمصار.

ولم يكن عثمان - رضى الله عنه - في واحدة من هذه مستبيح حرام، بل كان متحرجا غاية التحرج لدينه، فقد زاد في الأذان لكثرة عدد الناس، واتساع المدينة، وصلى صلاة المقيم لأنه اتخذ بمكة أهلا، فتحرج أن يصلى صلاة المسافر وهو صاحب أهل فيها. وقد كان جمعه القرآن الكريم حسنة من

(١) أخرى: أجدر. (٢) أى ذكية. (٣) أى من جاؤا بعده من الألباء.
(٤) جلة القوم: سادتهم وعظماؤهم. (٥) عدل عنه: حاد، وعدل إليه رجع.

أجل الحسنات، سبقه أبو بكر وعمر إلى مثلها، فحمد المسلمون صنيعةيهما وأنكره من أنكره منهم أولاً، ثم عادوا إلى قبوله بل ألفوه وأثنوا عليه.

قال عمر: إن القتل قد استحر^(١) بأهل اليمامة، وأخشى أن يستحر بقاء الكتاب في غيرها، فيذهب ما حفظوه بذهابهم، إلا أن يجمعوه، وأشار على الخليفة الأول بجمعه، فكانت مفاجأة نفر منها أبو بكر وجعل يقول: «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟». فقال عمر: «هو والله خير». قال أبو بكر: «نعم خير». ولم يزل عمر أن يراجع حتى شرح الله لذلك صدره.. ثم أخذوا يتبعون أى القرآن ويجمعونها من الرقاع والعصب^(٢) والأكتاف وصدور الرجال، حتى وجدوا من سورة التوبة آيتين عند خزيمية بن ثابت لم يجدوهما عند غيره، وتم جمع الكتاب في مصاحف عن طائفة من جلة الصحابة كالإمام على، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وجاء عثمان فسد ذرائع الخلاف، ولم يأت بشيء من عنده غير تعميم المصحف في جميع البلدان ليقرأه المسلمون على نسخة واحدة.

ولئن كان في بعض هذه الأمور التي تتعلق بالدين مخالفة للمألوف لقد خالف عمر المألوف في منع زواج المتعة، وفي نقص الأعطية للمؤلفة قلوبهم، وفي الإعفاء من حد السرقة في عام المجاعة، وفي تسوية الصفوف بالمسجد عند الصلاة، وفي مسائل أكبر مما أحصوه على عثمان، فلم يتحدث بها متحدث على سخط وتذمر فضلاً عن الثورة وحمل السلاح.

ولا نظيل في سرد الأمور «الدينية» التي قيل: إنها هاجت^(٣) الفتنة على عهد عثمان. ومنها، غلبة قريش على الأمصار وسيادة العرب على الأمم الأخرى، وإقامة بعض الولاة الذين اتهموا في تقواهم وبذل الأموال لذوى القرابة والنصر.

(١) استحر القتل: اشتد. (٢) جريد النخل. (٣) هاج الشيء: أثاره.

فقد ثار الثوار، فجاء الكوفيون يطلبون الزبير. وجاء البصريون يطلبون طلحة وجاء المصريون يطلبون عليا وكلهم من صميم قريش. . وقد أقام معاوية ملكه بقريش والعرب، وكان بذل الأموال لذوى القرابة والنصرء عماد دولته ووسيلته إلى تأسيس بيته وبسط سلطانه.

ومن الولاة الذين أنكروا الثائرون ولايتهم لاتهمهم بشرب الخمر الوليد ابن عقبة، وقد حدد^(١) عثمان بعد استماعه للشهادة عليه، ولم تكن ولايته على عهد عثمان، بل ولاء عمر على الجزيرة، واختاره عثمان لولاية الكوفة.

وسرى بعد، أنه ما من عمل نسب إلى الخليفة الثالث إلا حدث مثله من قبله، فلم تنشب من أجله فتنة، أو حدث مثله من بعده فلم تنشب من أجله فتنة، بل لعله كان من دعائم الدولة وأساس السلطان.

ولهذا قلنا: إنها أسباب ولا أسباب، وأنها بين أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها، أو أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها إلا لاقتنائها بأحوال تلك الفترة، ولو جاءت فى فترة أخرى لما كان لها ذلك الأثر.
لم؟..

نعم، لم والأسباب واحدة تختلف عواقبها بين هذه الفترة وغيرها؟..

ذلك أنها فترة جاءت بين الخلافة والمملكة، فلا تستقيم فيها وسائل الخلافة ولا تستقيم فيها وسائل المملكة. . ومن هنا اضطراب الوزن، واضطراب السخط والرضى، وقياس الأمور فى وقت واحد بمقياسين مختلفين أو متعارضين. . ولعمر الحق^(٢) ما من شىء يدل على أن الأحداث السياسية تبع للحالة النفسية ومقاييس الفكر والأخلاق كما يدل عليه تاريخ هذه الفترة فى صدر الإسلام بين خلافة الراشدين ودولة بنى أمية.

لقد كان الناس رعية «مملكة» يتصرفون فى معاشهم ومطالبهم كما

(١) نفذ فيه حد شارب الخمر. (٢) أسلوب قسم.

يتصرف رعايا الممالك، ويسومون ولى أمرهم أن يسوسهم سياسة الخلافة ويتظرون من الخليفة الثالث ألا يجرى فى أمر من الأمور على نهج ينحرف قيد شعرة^(١) عن نهج الخليفتين الأول والثانى، وهم أنفسهم قد انحرفوا عن نهج رعايا الخليفتين أبعد انحراف.

وما لا جدال فيه أن عثمان لم يكن بقوة أبى بكر وعمر، ولكن عمر نفسه على قوته ومهابته قد أحس فى أخريات أيامه وطأة^(٢) الاختلاف بين العهود فكان يقول فى دعائه: «اللهم كبرت سنى، وضعفت قوتى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى غير مضيع ولا مفرط...».

فتكليف عثمان أن يستبقى الزمن حيث لا يبقى ضرب من تكليف الأيام ضد طباعها كما قال الشاعر الحكيم، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك فقلنا فى عبقرية الإمام: أن عثمان «أحس بها فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكريين متناجزين لا يرجع أحدهما إلا بالغبلة على نده وضده».

وقلنا قبل ذلك: «إنه لا بد من ملك أو خلافة، ولن يكون ملك بأدوات خليفة ولا خليفة بأدوات ملك... ولم يكن معاوية زاهدا فى الخلافة على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه، فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه...».

ثم قلنا: «كيف يكون المخرج بين سياسة الملك كما يطلبها العصر وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية!.. أيفرق الأموال على رؤوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف، أم يلزمهم عيشة النسك^(٣) والشظف^(٤) والجهاد؟ وإذا حرمهم وتألّبوا عليه^(٥) مع خصمه أفهوا الغالب إذا ومطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون؟ وإذا أعطاهم

(١) قيد شعرة: أى قدر شعرة. (٢) الوطأة: موضع القدم وهى أيضا كالضغطة.

(٣) النسك: العبادة. (٤) الشظف: خشونة العيش. (٥) أى قاموا ضده.

ليذخوا^(١) بذخ الملك الدنيوى وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنة النبوة، أفيستقيم له هذا «الدور» العجيب وهو فى جوهره متناقض لا يستقيم؟» .

تلك هى العقدة التى استحكمت فى عهد عثمان ووجب أن تنقطع فى عهد على ومعاوية . .

وإعادة النظر فى جميع الأسباب والتبعات تعود بنا إلى نظرة فاصلة فى هذه المشكلة التى زادها نفر من المؤرخين إشكالا بما أضافوه إليها من الأسباب المختلفة^(٢) والأسباب الصحيحة التى خرجوا بها على غير مخرجها .

فنحن أولا فى تاريخ الخليفة الثالث أمام حادثين لا تكفى أسباب أحدهما لتفسير الحادث الآخر .

ونحن فى الحادثين جميعا بعد هذا أمام أسباب لا تفعل فعلها لو جاءت فى فترة أخرى، ولعلها تفعل نقيض فعلها فتزيد ولى الأمر ولا تخذله كما تأيدت دولة بنى أمية بالعطايا والعمائر وكان فيها خذلان عثمان ومشيره مروان . .

وما لم تنقطع غاشية هذا اللبس وهذا الإبهام من تاريخ هذه الفترة فنحن نسلکها فى ضباب لا تبدو فيه الأشباح والصور على حقيقتها . ومن ثم رجونا أن نبدأ السيرة وقد تبدد ما حولها من غواشى ذلك الضباب الكثيف . وسنبدؤها من حيث تبدأ فى طريق لا يهيمه اختلاط الأسباب ولا التعويل عليها مبتورة^(٣) منفصلة الرؤوس والأذنان .

(١) البذخ: الكبير. (٢) أى من نسجهم وتأليفهم. (٣) مبتورة ومقطوعة.

الفصل الثانى

بين الجاهلية والإسلام

نشأ عثمان بن عفان فى أسرة أموية تنتمى إلى أمية جد أبيه، وعند أمية يكثر الخلاف على سلسلة النسب بين أسرته والنسايين^(١)، فلا تتفق الأقوال المتضاربة على قول حاسم^(٢).

يقول المقرئى فى رسالة النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم: «وقد كانت المنافرة لا تزال بين بنى هاشم وبنى عبد شمس بحيث إنه يقال: إن هاشما وعبد شمس ولدا توأمين، فخرج عبد شمس فى الولادة قبل هاشم وقد لصقت أصبع أحدهما بجبهة الآخر، فلما نزعتم دمى المكان، فقيل: سيكون بينهما أو بين ولديهما دم، فكان كذلك..»

«ويقال: إن عبد شمس وهاشما كانا يوم ولدا فى بطن واحد، كانت جباههما ملصقة بعضها ببعض، ففرق بين جباههما بالسيف، فقال بعض العرب: ألا فرق ذلك بالدرهم؟ فإنه لا يزال السيف بينهم وبين أولادهم إلى الأبد»..

وأمية هو فى تاريخ الأسرة ابن عبد شمس أحد التوأمين أو الأخوين، ولكن بعض النسايين يقول: إنه ربيب^(٣) عبد شمس، وأنه ابن جارية رومية وصلت إلى الحجاز مع ركب سفينة جنحت^(٤) إلى الشاطئ، ويفسرون بذلك أبياتا منسوبة إلى أبى طالب يقول فيها:

قدما أبوهم كان عبدا لجدنا بنى أمية شهلاء جاش بها البحر
يفسرون به أيضا قول الإمام على لمعاوية فى بعض كتبه: «ليس المهاجر

(١) النسايين: الذين يعرفون تسلسل الأنساب.

(٢) أى قاطع.

(٣) ربيب الرجل: هو ابن امرأته من رجل آخر.

(٤) جنحت: مالت.

كالطليق ولا الصريح^(١) كاللصيق^(٢) . . وجاء في ابن هشام أن عقبة بن ذكوان بن أمية صاح حين أم النبي بقتله: «أزقتل من بين قريش؟». فقال عمر ابن الخطاب: «حن قدح^(٣) ليس منها» وهو مثل ضرب للقدح الدخيل في الميسر، وروى ابن هشام أيضاً . . أن النبي ﷺ قال حينئذ: «إنما أنت يهودى من أهل صفورية» ويقال في تفسير الحديث: أن الأمة التي ولدت أباه كانت ليهودى من أهل صفورية، ويقال غير ذلك مما يعسر الفصل فيه . .

ولكنه من الراجح الذى ينتهى به التاريخ إلى دور التحقيق، أن التبنى وتدعيم العصبية به معهودان فى هذه الأسرة على نحو لم يذكر له مثل فى الأسر الجاهلية الكبيرة، ومما رواه الأصفهاني وابن أبى الحديد: أن معاوية قال لدغفل النسابة: «أرأيت أمية؟». قال: «نعم» قال: «كيف رأيتاه؟». قال: «رأيتاه رجلا قصيرا ضريرا يقوده عبده ذكوان». قال معاوية: «ذلك ابنه أبو عمرو». قال دغفل: «ذلك شىء تقولونه أنتم، أما قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده» .

وفى التاريخ الثابت بعد الإسلام أن أبا سفيان استلحق زيادا الذى كان يسمى بزياد بن أبيه أو بزياد بن سمية، وكان معاوية يغضب على من ينكر هذا الاستلحاق، فقال يزيد بن مفرغ يخاطبه:

أتغضب أن يقا أبوك عف^(٤) وترضى أن يقال أبوك زان
فأقسم أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

وروى البلاذرى من أخبار هذا الاستلحاق: أن عثمان بن محمد بن أبى سفيان ولى المدينة بعد عمرو بن سعيد، فعرض فى خطبته بسلفه، وكان هذا حاضرا فى المسجد، فنهض مغضبا وقال فيما قاله لعثمان حفيد أبى سفيان: «إننى لا يستنكر شبهى ولا أدعى لغير أبى» . .

(١) صرح نسبة: خلص . (٢) اللصيق: المنسوب لغير أصله .

(٣) القدح: السهم . (٤) أى عفيف .

وزيد المقریزی على ما تقدم من خبره: أن أمية «صنع في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب: زوج ابنه أبا عمرو امرأته في حياته».

قال المقریزی: «والمقتيون^(١) في الإسلام هم الذين أولدوا نساء آبائهم واستنكحوهن من بعد موتهم. وأما أن يتزوجها في حياته، وبينى عليها^(٢) وهو يراه، فإن هذا لم يكن قط. وأمّية قد جاوز هذا المعنى ولم يرض بهذا المقدار حتى نزل عنها له وزوجها منه».

ثم قال المقریزی: «وأبو معيط بن أبي عمرو بن أمية قد زاد في المقت درجتين»..

وندع^(٣) ما جاء في أنساب الأشراف وفي شرح نهج البلاغة من سائر هذه الأخبار عن استلحاق الأبناء، فإن الحرص على تدعيم العصبية ظاهر في هذه الأسرة، مما ثبت من أخبارها، فلا حاجة إلى الإسهاب فيه.

وكانت المنافرة شديدة بين أمية وهاشم إلى أيام الدعوة المحمدية، يحفظ لنا الرواة أخباراً كثيرة منها قديمة وحديثة، فمن أحداثها قبل الدعوة الإسلامية: أن حرباً بن أمية وعبد المطلب بن هاشم تنافرا^(٤) إلى حكم من بنى عدى القرشيين هو نفيّل جد الفاروق، فقال نفيّل لحرب: «أتنافر رجلاً هو أطول منك قامه، وأعظم منك هامة^(٥)، وأوسم منك وسامة^(٦)، وأقل منك لامة^(٧)، وأكثر منك ولداً، وأجزل^(٨) منك صفداً^(٩)، وأطول منك مذوداً^(١٠):

أبوك معاهر^(١١) وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام

(١) نكاح المقت: كان في الجاهلية، وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه.

(٢) بنى على أهله: زف ودخل. (٣) أي تترك.

(٤) تنافرا: أي تحاكما في الحسب أو المفاخرة. (٥) الهامة: الرأس، وهامة القوم: رئيسهم.

(٦) الوسيم: حسن الوجه. (٧) أي ما يلام عليه. (٨) أي أكثر. (٩) الصفد: العطاء.

(١٠) المذود: اللسان. (١١) المعاهر: الذي يأتي النساء للفجور.

يشير إلى تعرض أمية للنساء، ومنهن امرأة من بنى زهرة راودها فتصدى له بعض قومها، وأوشكت أن تكون من جراء هذا الخلاف فتنة بين قبائل قريش..

وأقدم من هذه المنافرة منافرة أخرى بين هاشم وأميمة تكلف فيها أمية أن يصنع صنيع هاشم، وكان هاشم - واسمه عمرو - قد غلب عليه لقب هاشم لأنه تكفل بإطعام المعوزين من أهل مكة وجيرتها عام المجاعة، فكان يهشم الثريد لهم وينحر الإبل ويتعهد الفقراء، وفيه يقول شاعرهم:

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة بستون عجاف

فأراد أمية أن ينافسه فى الشرف ومحبة الناس رياه فعجز عن هذه المنزلة، فدعاه إلى المنافرة كعادتهم، واحتكما إلى كاهن خزاعة بعسفان على خمسين ناقة تنحر بمكة وجلاء عشر سنين من جرار الحرم، فقال الكاهن سجعا على أسلوب الكهان والمحكمين جميعا يومئذ: «والقمر الباهر^(١)، والكوكب الزاهر^(٢)، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اعتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر^(٣)، لقد سبق هاشم إلى المائر^(٤)، وأول منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر».

وأبو همهمة الذى أشار إليه الكاهن هو حبيب بن عامر الذى خرج مع أمية، ويتتهى نسبه إلى فهر بن سالك. وكأنا أراد الكاهن بذكره أن يذكره بما فى النسب الأول والآخر من سر هو به خير.

قال الرواة: فأخذ هاشم الإبل فنحراها وأطعم لحمها من حضر، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين.

(١) بهر القمر: أضاء حتى غلب ضوء الكواكب.

(٢) زهرت النار: أضاءت، والأزهران: الشمس والقمر.

(٣) أى مرتفع ومنخفض، أو منجد: نسبة إلى نجد، وغائر نسبة إلى تهامة.

(٤) أى المكارم لتواسه.

ويكاد التنافس بين العشيرتين أن يشمل كل مطلب من مطالب الحياة، فشمّل الفروسية، ووسامة الذرية، كما شمل الرئاسة، ومفاخر السيادة.

تنافس أمية وعبد المطلب على سباق الخيل، وتراها على أن تحز ناصية^(١) السبوق سنة، ويغرم عددا اختلفوا فيه من العبيد والإماء والإبل، فسبق فرس عبد المطلب فرس أمية، ودان أمية بسيادته عليه سنة، ونقل ابن أبي الحديد في شرحه لهج البلاغة كلمة لعبد الله بن جعفر في محضر معاوية جبه^(٢) بها يزيد وهو يفاخره فقال: «أفناخرني بحرب الذي أجرناه أم بأمية الذي ملكناه أم بعبد شمس الذي كفلناه؟».

ويقول الكلبي في أبناء عبد المطلب: «كانوا إذا طافوا بالبيت يأخذون البصر»، ورآهم عامر بن مالك فقال: «بهؤلاء تمنع مكة»، وغير هذه الصفة تقال في أبناء حرب، فلا يتصدى لنقضها أحد من الأمويين المتقدمين..

ونحسب أن المنافسة بين العشيرتين كانت ضربة لازب، لأن الاختلاف بينهما أعمق غورا من الاختلاف على الرئاسة ومناصب الشرف فيما اصطلاح عليه عرف الجاهلية: كان اختلافا في الخلق والطبيعة، وكان بنو هاشم على ما ثبت من الروايات المتقدمة أقرب إلى الأخلاق المشالية الدينية، وبنو أمية أقرب إلى الأخلاق العملية الدنيوية. وقد يتردد المؤرخ في قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها، ولكنه لا يحتاج إلى المشكوك فيه من تلك المرويات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الإسلام وبعد الإسلام، ففي حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، وتخلّى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه.. وحلف الفضول هذا هو الذي قال عنه النبي ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول.. أما لو دعيت به اليوم لأجبت، وما أحب أن لى به حمر النعم وإنى نقضته».

(١) الناصية: قصاص الشعر. (٢) جبه: ضرب جبهته ورده، أو لقيه بما يكره، وهو الراد.

وخلاصة قصته: أن رجلا يمانيا قدم مكة ببضاعة، فاشتراها رجل، فلواه^(١) بحقه، وأبى أن يرد إليه بضاعته، فقام في الحجر أو في مكان على شرف^(٢) وصاح يستغيث، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بنى هاشم وأحلافهم ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه في جفنة^(٣) وبعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه وشربوه . .

وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف، فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول: «لو أن رجلا وحده خرج من قومه، لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول».

وإن طبيعتين يفصلهما ذا الفاصل من ذوات النفوس، لا جرم^(٤) تتنافران وإن ضمهما بلد واحد، وأنهما في البلد الواحد لأخلق بالتنافر من المتباعدين . .

هذه العجالة عما كان من المنافرة بين بنى هاشم وبنى أمية في الجاهلية تدخل في سيرة عثمان من مداخل شتى^(٥)، وقل أن يمر بنا مبحث في عمل من أعماله أو خلق من أخلاقه إلا كانت به عودة إلى تلك المنافرة.

فمنها نفهم أن فضل عثمان في إسلامه لا يدانيه أحد من السابقين المعدودين إلى الإسلام، إذ لم يكن منهم من أقامت أسرته بينها وبين النبي هذه الحواجز العريقة من المنافسة والملاحاة. وكلهم كان بينهم وبين الإسلام ما كان بين القديم عامة والجديد عامة، ولم تبلغ عداوتهم أن تكون من عصبية اللحم والدم أو عصبية البيت كما كانت عداوة الأمويين للهاشميين. وليست هذه العداوة في الجاهلية بالشيء الهين ولا بالعقبة المذللة^(٦). فقد رأينا رجلا

(١) لواه بدينه: مطله. (٢) شرف: مكان عال. (٣) الجفنة كالقصة.

(٤) بمعنى لا بد، أو حقا. (٥) أى متعددة. (٦) أى السهلة.

من بنى عبد شمس كان يتمنى أن يشهد حلف الفضول فحماءه أن يفعل ذلك خشية الخروج على قومه ببدعة^(١) لم يقبلوها ولم يشتركوا فيها. وهذا مع ما هو واضح من الفارق بين دعوة كحلف الفضول لا تنقض ديننا، ولا تغير عبادة، ولا تميز أحدا م الداخلين فيها بشرف أو سيادة، وبين دعوة كالدعوة المحمدية تحطم كل صنم، وتبدل كل عبادة، وتثبت لبيت عبد المطلب شرفا لا يسمو إليه شرف بين الناس كافة، فضلا عن قريش وأمة العرب بكل ما تشتمل عليه..

وما تقدم من شواجر^(٢) النزاع بين أمية وهاشم كاف للإيانة عن فضل عثمان في سبقه مع السابقين إلى قبول الدعوة المحمدية.. إلا أن هذا الذي تقدم لم يكن شيئًا إلى جانب الشر الذي قوبل به النبي في بيت عثمان نفسه وبين عمومته وقربته من جملة الأمويين..

فالحكم بن العاص - عم عثمان - كان يتصدى للنبي ويشتمه ويمشى وراءه يحكيه^(٣) في مشيته ويخلج^(٤) بأنفه وفمه، فقيل: إنه - عليه السلام - التفت إليه وهو بهذه الحالة فلزمه ذلك الاختلاج. وقال فيه عبد الرحمن بن حسان وهو يهجو مروان ابنه:

إن اللعين أباك فارم عظامه إن ترم ترم مخلصا مجنوننا
يضحى خميص^(٥) البطن من عمل التقى ويظل من عمل الخبيث بطينا^(٦)

وقد لبث على دخلة^(٧) نفسه بعد إسلامه عام الفتح خوفا من القتل، فكان يتطلع على النبي في داره، فرآه مرة فقال: «من عذيري من هذا

(١) البدعة: الأمر المستحدث. (٢) شجر القوم: اختلفوا.

(٣) يحكيه: أى يمشى مثله ويقلده. (٤) من معانى خلج: غمز وحرك.

(٥) الخمصة: الجوعة، وهو خميص: أى جائع. (٦) البطين: عظيم البطن.

(٧) دخلة الرجل: نيته، ومذهبه، وخلده، وجميع أمره.

الوزغة! (١) ثم أمر ألا يساكنه بالمدينة، فأخرج مع بنيه إلى الطائف لا يدخل المدينة ما أقام فيها - عليه السلام - .

ومنهم عقبة بن أبي معيط الذى كان يتربص بالنبي حتى يسجد فى صلاته فيلقى على رأسه سلا (٢) الشاء أو يطأ على عنقه الشريفة كما قال النبي فى يوم بدر: «إنه وطىء على عنقى وأنا ساجد فما رفعت حتى ظننت أن عينى قد سقطتا» . . وكان أحد الأسرى الذين قتلوا بدر لشدة ما ابتلى به المسلمون من أذاهم قبل الهجرة، وفى بيت عقبة هذا أقام عثمان زمنا، لأنه تزوج من أمه بعد موت أبيه فى صباه.

وتصدى للنبي ﷺ كثيرون غير هذين من قرابة عثمان وخاصة أهله، ولم يدخل فى الإسلام أحد من بنى أمية قبله مع هذه العداوة فى أسرته كلها وفى خاصة قرابته منها، فله من فضل هذه السابقة ما ليس لأحد السابقين إلى قبول الدعوة المحمدية.

ولما أسلم - رضى الله عنه - أخذه عمه الحكم، فأوثقه رباطا، وعذبه، وأقسم لا يخلينه أو يدع ما هو فيه، فأقسم لا يدعنه أبدا، وصبر على العذاب حتى يئس منه عمه فأخلاه.

وروى فى سبب إسلامه أن أبا بكر شرح له قواعد الإسلام، وهداية الدين الجديد، وأنس منه خشوعا وتفكيرا، فقال له: «ويحك يا عثمان، والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل . . ما هذه الأوثان التى تعبدها وقومك؟ أليست حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع؟». فراجع فسه وقال: «بلى والله إنها لكذلك» فدعاه أبو بكر إلى لقاء النبي، ولقيه، فقال له - عليه السلام - : «يا عثمان! . . أجب الله إلى جتته». قال عثمان: «فوالله ما ملكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا

(١) الوزغة: جمع وازغ، ومن معانى الوازغ: الكلب. (٢) أى الامعاء.

الله وحده لا شريك له وأن محمد عبد ورسوله، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية».

ومن المتواتر أن عثمان كانت له خالة اسمها سعدى بنت كريض تكهن وتتعبد، وتقل عنها: أنها هنأته بإسلامه وزواجه، فقالت:

هدى الله عثمان الصفى بقوله فأرشده والله يهدى إلى الحق
فبايع بالرأى السيد محمد وكان ابن أروى لا يصد عن الصدق
وأنكحه المبعوث خير بناته فكان كيدر مزج الشمس فى الأفق
وينقل عنها غير ذلك: أنها كانت طرقت^(١) وتكهن عند قومها فلما
رأته بعد قيام النبی بالدعوة قالت:

أبشر وحييت ثلاث تترى^(٢) أتاك خير ووقيت شرا
أنكحت والله حصانا^(٣) زهرا^(٤) وأنت بكر ولقيت بكرا
وافيتها بنت عظيم قدرا بنت نبى قد أشاد ذكرا

قال عثمان: «فعبجت من كلامها وسألتها: يا خالة! .. ما تقولين؟». قالت: «يا عثمان! .. لك الجمال ولك اللسان، هذا نبى معه البرهان، أرسله بحقه الديان، فاتبعه وأهجر الأوثان». واستزادها قائلا: «يا خالة! .. إنك لتذكرين شيئا ما وقع ذكره فى بلدنا فأبينيه لى». قالت: «محمد بن عبد الله رسول من عند الله جاء بتزليل الله يدعو إلى الحق والهدى».

ويقال: إن عثمان إنما ذهب إلى أبى بكر بعد ما سمعه من خالته، فرآه أبو بكر مفكرا، فسأله وجرى بينهما بعد ذلك ما تقدم من النصيحة والاستجابة على ما اتفقت به الروايات.

(١) الطرق: الضرب بالحصى، وهو نوع من التكهن، والطراق، المتكهنون، والطوارق، التكهنات.

(٢) أى متابعة. (٣) الحصان: العفيفة. (٤) الزهراء: ذات الوجه الأبيض المشرق.

ونحن نسقط من حسابنا ما روى من كلام الكاهنة، لأنه ضعيف السند لا يبقى منه إلا أن خالة لعثمان كانت تكهن وتتعبد، وأن مسألة الدين في بيته كانت شغلا شاغلا لمن يأخذه على العصبية والعناد، أو يأخذه على العبادة والتقوى، فما نظن أن رجلا في الثلاثين - وهي سنه عند إسلامه - كان يعصى اله جميعا ويطيع شيخة عقاما^(١) لو لم يكن في ضميره باعث مطاع إلى الإيمان بالدين الجديد.

وفي وسعنا أن نتخيل غضب قومه الأقربين من إسلامه، فقد كان كأشد غضب لحق مسلما من قومه المقيمين على الجاهلية، ولكنه مع هذا لم يمنع أناسا منهم أن يلودوا^(٢) به خوفا على أنفسهم بعد هزيمتهم، ولم يمنع أن يتشفع لهم عند النبي وصحبه، ويسأله العفو عنهم، وكذلك نرى أن تاريخ أمية في الجاهلية يحضرنا عند تقدير فضل عثمان في إسلامه ويحضرنا عند تقدير أعذاره وعلل أعماله التي أخذت عليه بعد ولايته الخلافة. فقد كان لتدعيم العصبية وتأليبها شأن قديم في تاريخ هذه الأسرة، ألبها إلى استلحاق الأبناء من الموالى، وإلى تزويج البنين من زوجات آبائهم أو الموالى من زوجات أوليائهم، ولا ندرى على التحقيق بم نعلل هذه العادة التي انفردوا بها أو كادوا، إلا أنها قد تعلق بأن القوم لم يكونوا من الخمول بحيث يسكنون إلى خمولهم، ولم يكونوا من العزة الراسخة^(٣) بحيث يطمثون إلى عزتهم، وأنهم - وإن لم يعقموا - لم تشتهر عنهم غزارة^(٤) الذرية في الجاهلية، ولا في الإسلام. وهذه سلسلة ولاية العهد أوشكت أن تنقطع في كل بيت من بيوتهم ولى الخلافة بعد قيام الدولة الأموية، وربما انقرض^(٥) البيت في جيل أو جيلين، وبقي معاصروه من غيرهم عدة أجيال..

(١) المرأة العقام: التي لا يولد لها. (٢) يقال: لاذ بفلان: أى لجأ إليه.

(٣) الراسخة: أى القوية. (٤) غزارة: كثرة.

(٥) انقرض القوم: ماتوا ولم يبق منهم أحد.

وقد انتهت المفاخرة بعد الإسلام بين المسلمين من بنى أمية وبين بنى عبد
المطلب، فما من أموى مسلم كان يتعالى إلى مطاولة آل النبي بالنسب من
جانب آبائه - عليه السلام - خاصة، ولكنهم مع هذا - ولا استثناء لأصدقهم
إسلاما كعثمان وصحابة النبي - قد كانوا يودون لو سمعوا عن أمية كلما
سمعوا عن هاشم وبنيه. وتقدم أن معاوية سأل دغفا النسابة عن أمية بعد
سؤاله عن عبد المطلب، وابن أبي الحديد، يروى مثل هذا عن عثمان في أيام
خلافته، وأنه - رضى الله عنه - تمنى رجلا يحدثه عن الملوك وسير الماضين،
فذكروا له رجلا بحضرموت، فكان مما سأله عنه: أرأيت عبد المطلب؟ قال:
«نعم، رأيت رجلا قعدا أبيض طوالا مقرون الحاجبين بين عينيه غرة يقال أن
فيها بركة، وأن فيه بركة». . . فعاد يسأله: «أرأيت أمية؟» قال: «نعم. . . رأيت
رجلا آدم^(١) دميما^(٢) قصيرا أعمى يقال أنه نكد^(٣). وأن فيه نكدا». قال
عثمان: حسبك من شر سماعه. وصرف الرجل. . .

ولا ينبغي أن ينسى العذر حيث يذكر الفضل للرجل من سوابق آله
وذويه. . .

(١) الأدم من الناس: الاسمر.

(٢) الدميم: القبيح.

(٣) رجل نكد: أى شؤم عسر، ورجل نكد: قليل العطاء.

نشأته وشخصيته

ترجمة عثمان ترجمة سوية، لا نستغرب من لاحقها بعد الإسلام شيئاً مما نعلمه عن سابق سيرته قبل إسلامه، وإذا فاجأنا بالغرابة لأول وهلة فإنما نستغربه من أثر المفاجأة، ثم نعود إلى دواعيه فإذا هو مطرد لا غرابة فيه . .

نشأ في نعمة وعيش خفيض^(١)، وكانت ولادته بالطائف أخصب بقاع الحجاز، لست سنوات مضت من عام الفيل، ولم يؤثر عنه أنه اختبر شظف^(٢) العيش قط في صباه أو طفولته . .

وهو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، كان أبوه تاجراً واسع التجارة، وكان يحمل قوافله إلى الشام على دأب^(٣) الأكثرين من تجار بنى أمية، وفي إحدى هذه الرحلات التجارية مات عن ثروة عظيمة، وترك ابنه بين الصبا والشباب . .

وإذا صح ما جاء في أنساب الأشراف للبلاذري، فقد كان عفان يعمل في حياكة الثياب: «عفان أول حائك لثيابكم». ولكننا نستبعد جداً أن يجمع الثروة من حياكة الثياب بيديه، ومن الراجح إذا أنه كان يدير مصنعا من مصانعها، أو أنه عمل بها في صباه ثم تحول عنها إلى التجارة.

وأم عثمان هي أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأمها أروى البيضاء بنت عبد المطلب عمه النبي ﷺ وقد سبق أن أختها تكهن وتنقطع للكهانة، ففي وراثته من جانب أمه جنوح^(٤) إلى طبيعة التدين التي اشتهر بها عبد المطلب وأباؤه وبنوه.

ويروى كما جاء في ابن الأثير: أن عقبة بن معيط شكاه إلى أمه - وكان قد تزوج بها بعد وفاة عفان - فقال لها: إن ابنك قد صار ينصر

(١) عيش خافض وخفيض: أى فيه دعة . (٢) شظف العيش: يسهه وشدته.

(٣) الدأب: العادة والشأن. (٤) جنوح: أى ميل.

محمدا، فلم تنكر ذلك من ابنها وقالت: «ومن أولى به منا؟.. أموالنا وأنفسنا دون محمد»..

وقد كان مألوفاً في الجاهلية أن تزوج المرأة بعد تطليقها من زوجها أو بعد وفاته، ولكن هذه العادة المألوفة لا تمنع أن ينقبض لها الابن وأن ينكسر لها بينه وبين نفسه، فيلازمه منها بعض الخجل، ولا يرتاح إليها بأية حالة..

ويبدو من دراسات علم النفس الحديث أن «مشكلة الأب» قد تمكنت من طوية الصبى. فكان لها فعلها في توجيه شعوره من ناحية ذويه ومن ناحية البيئة بأسرها، فضاعفت ما في وراثته الأموية من الإيواء إلى ذوى قرياء، وهيات نفسه للنفور من الوضع القائم في البيئة فلم يصعب عليه أن ينكر الأوضاع القائمة في نطاقها الأعم الأوسع، وهو نطاق الشعائر الجاهلية..

ذلك أنه نشأ وهو يحس أنه رب البيت الذى نشأ فيه غاصب يتترع مكان أبيه، فتمكنت من نفسه الريبة فى الأوضاع القائمة، ولم يحتملها إلا على مضض^(١) الكاره وترقب المتربص^(٢)، وبخاصة حين تأتي من ناحية الأم التى تمثل لابنها فى هذه الحالة كأنها مغلوبة على أمرها متترعة ممن هو أحق بها.

وقد أسلفنا أننا لا نعول كثيرا على الرواية التى تعود بإسلام عثمان إلى نصيحة خالته الكاهنة، فليس فى كلامها مقنع للفكر يحول رجلا فى الثلاثين عن دينه وتراث بيته، ولكنها على هذا تدل على داعية من الشعور لا نهملها ولا نستبعد مكانها من السريرة الباطنة، ويعززها^(٣) أن أسرة أمه كانت لا تخلو من عطف قوى نحو صاحب الدعوة إلى الدين الجديد: عطف يبدو من قول أمه: «أموالنا وأنفسنا دون محمد».. وهى كلمة لا ينبغى أن ننساها فى مواطن كثيرة من سيرة ابنها - رضوان الله عليه-.

ونقرأ وصف عثمان على ألسنة معاصريه. فتراهم مجمعين على صفتين لم ينسهما أحد منهم، وهما: الجمال والحياء..

(١) مضض: أى وجع. (٢) التربص: الانتظار. (٣) يعوزها: يقويها.

كان ربعة لا بلقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، مشرف^(١) الأنف، بوجتته نكتات من آثار الجدرى، رقيق البشرة، أسمر اللون، كثير الشعر، له جمرة^(٢) أسفل أذنيه، وبه صلح مع طول فى لحيته وغزارة فى عارضيه^(٣) . .

وكان خفيف الجسم، ولكنه لم يكن بضعيفه ولا معروفه^(٤)، بل كان ضخم الكراديس^(٥) بعيد ما بين المنكبين.

أما خلائقه، فقد أجمع واصفوه على أنه كان عذب الروح، حلو الشمائل محبباً إلى عارفيه، ومن ذاك أن نساء قريش كن يرفصن أطفالهن فيقلن:

أحبك والرحمن حب قريش عثمان

وكان يوتد^(٦) أسنانه بالذهب، ويخضب^(٧) لحيته، وربما تركها بغير خضاب.

وفى كتاب «الرياض النضرة» يروى المحب الطبرى عن عمرو بن عثمان: أن عثمان بن عفان قال: «كنت رجلاً مستهترا بالنساء، وإنى ذات ليلة بفتاء الكعبة فى رهط من قريش إذ أتينا فليل لنا: أن محمداً قد أنكح عتبة بن أبى لهب رقية، وكانت رقية ذات جمال رائع. قال عثمان: فدخلتني الحسرة لم لا أكون أنا سبقت إلى ذلك، فلم ألبث أن انصرفت إلى منزلى فأصببت خالة لى قاعدة وهى سعدة بنت كريب، وكانت قد طرقت وتكهننت عند قومها، فلما رأتنى قالت: «أبشر وحييت ثلاثاً تترى.. إلى آخر الأبيات، وروى ما تقدم من حديثها فى غير هذا الفصل إلى قوله: «وكان لى مجلس عند أبى بكر فأتيته فأصبته فى مجلس ليس عنده أحد، فجلست إليه فرأنى

(١) مشرف: أى مرتفع.

(٢) عارضنا الإنسان: صفحتنا خديه. (٤) المعروق: القليل اللحم.

(٥) الكردوسة: كل عظمين لتقيا فى مفصل.

(٦) أى يثبت. (٧) أى يصبغها بالخناء ونحوها.

فكروا فسألنى عن أمرى - وكان رجلا متأنيا - فأخبرته بما سمعت من خالتي، فقال: «ويحك يا عثمان إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل». ثم قال: «فما كان أسرع من أن مر رسول الله ﷺ ومعه على بن أبى طالب يحمل ثوبا، فلما رآه أبو بكر قام فساره^(١) فى أذنه بشيء، فجاء رسول الله ﷺ فقعد ثم أقبل على فقال: «يا عثمان!.. أجب الله إلى جنته فإنى رسول الله إليك وإلى خلقه». قال: «فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله».

وتتكرر قصة كهذه فى كتاب الإصابة لابن حجر العسقلانى، وهى قصة يلاحظ عليها أن زواج السيدة قية من عتبة بن أبى لهب قد كان قبل البعثة النبوية، فلما بعث النبى قال أبو لهب لابنه: «رأسى من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته، ففارقها ولم يكن دخل بها».

فلا يبقى من هذه القصة ما يستبقى للتعريف بخلائق عثمان إلا قوله عن نفسه: إنه كان فى الجاهلية مستهترا^(٢) بالنساء، ولو لم يرد حديث هذه القصة فى رواية من الروايات لما علمنا قط أنه كان كذلك فى الجاهلية، لأن أحدا من عاصريه فى الجاهلية لم يشهده على حال يحسبها من الاستهتار بالنساء، فإنهم كانوا يسيحون كثرة الزوجات لمن استطاع أن يجمع بينهن، وإنما نعرف من هذه القصة خلائق عثمان بنعمته وحياته، وبقدرته على المتعة والتعفف عما يشينه^(٣) منها، وبالخلق الذى لازمه طول الحياة، وهو خلق ريبب النعمة الكريم.

روى عمر بن أمية الضمري قال: «إنى كنت أتعشى مع عثمان خزيرا^(٤) من طبخ من أجود ما رأيت، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن، فقال عثمان: كيف ترى هذا الطعام؟ فقلت: هذا أطيب ما أكلت قط. فقال:

(١) أى تحدث إليه سرا. (٢) مستهترا بالنساء: مولعا بهن. (٣) يشينه: أى يعيبه.

(٤) الحساء من الدسم.

يرحم الله ابن الخطاب. أكلت معه هذه الخزيرة قط؟ قلت نعم، فكادت اللقمة تفرث^(١) بين يدي حين أهوى بها إلى فمي وليس فيها لحم، وكان أدمها السمن ولا لب فيها. فقال عثمان: صدقت!.. إن عمر - رضى الله عنه - أتعب والله من تبع أثره، وأنه كان يطلب بثنيه - أى منعه - عن هذه الأمور ظلما - أى غلظا - فى المعيشة. ثم قال: أما والله ما أكله من مال المسلمين ولكنى أكله من مالى، وأنت تعلم أنى كنت أكثر قریش مالا، وأجدهم فى التجارة، ولم أزل أكل من الطعام ما لان منه وقد بلغت سنا، فأحب الطعام إلى أليته، ولا أعلم لأحد على فى ذلك تبعة^(٢)».

ودخل زياد على عثمان فى خلافته بما بقى عنده لبيت المال، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئا من فضة ومضى به، فبكى زياد.. قال عثمان: «ما يبكيك؟». قال: «أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهما، فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام، وأن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ، فلم أر أحدا قال له شيئا». قال عثمان: «إن عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله، وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله.. ولن تلقى مثل عمر، لن تلقى مثل عمر.. لن تلقى مثل عمر..».

وقد سمع غير مرة يقول: «يرحم الله عمر، من ذا يطيق ما كان يطيقه!»!

وصفوة القول فى خلاق عثمان أنه كان إلى صفات الطيبة والسماحة أقرب منه إلى صفات البأس والصرامة، وأن نشأة العيش الخفيض صحبته من صباه إلى شيخوخته، وفى غير تبعة عليه كما قال..

اختصم يوما هو وأبو عبيدة بن الجراح، فقال أبو عبيدة: «أنا أفضل منك بثلاث»، فسأله عثمان: «وما هن؟». قال: «الأولى أنى كنت يوم البيعة

(١) أى تتقق وتتناثر. (٢) التبعة: الشيء الذى لك فيه بغية شبه ظلامة.

حاضرا وأنت غائب، والثانية شهدت بدرا ولم تشهده، والثالثة كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت»، فلم يغضب عثمان، ولكنه قال له: «صدقت». ثم أجابه معتذرا فقال: «أما يوم البيعة فإن رسول الله ﷺ بعثنى فى حاجة ومد يده عنى وقال: هذه يد عثمان بن عفان، وكانت يده الشريفة خيرا من يدي. وأما يوم بدر فإن رسول الله ﷺ استخلفنى على المدينة ولم يمكنى مخالفته، وكانت ابنته رقية مريضة فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفتها. وأما انهزامى يوم أحد، فإن الله عفا عنى. وأضاف فعلى إلى الشيطان. فقال تعالى: «إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا. ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلِيم»^(١)..

والحق أن تخلف عثمان عن يوم البيعة وعن يوم بدر لم يكن باختيار منه ولم يكن فيه إحجام عنخطر مخوف، بل تخلف فى اليومين طوعا لأمر النبى ﷺ. أما يوم «أحد» فقد انهزم معه فيه كثيرون من شجعان الصحابة، وكانت الهزيمة فيه صدمة من صدمات البغثة التى يكاد النكوص^(٢) فيها أن يكون دفعة آكية ثم يثبت الجأش^(٣) بعد الصدمة الأولى كما حدث من أكثر المنهزمين فى ذلك اليوم العصيب.

بيد أن المعارك الأخرى لم تحفظ لعثمان موقفا من تلك المواقف النادرة التى تتناقلها الألسنة ويتسايير بها الركبان من أخبار زملائه الخلفاء، فإن كان فيها غير متخلف ولا محجم فليست هى بفخره الأول وفضيلته العليا. إنما كانت فضيلته العليا السخاء حيث يعز السخاء على أمثاله من ذوى الثراء، ولا سيما ذوى الثراء من بنى أمية الذين ضمنوا بأموالهم فى الجاهلية والإسلام إلا لمطمع أو مصلحة، وهذه هى آية العقيدة فى مناقب عثمان..

لقد أشربت النفوس من العقيدة الجديدة غيرة لا عهد لها بمثلها فى

(١) الآية: ١٥٥ من سورة آل عمران. (٢) أى الرجوع والفرار.

(٣) الجأش: زواغ القلب إذا اضطرب عند الفزع. ونفس الإنسان.

التنافس بين أكفائها: غيرة في العقيدة وغيرة لها وغيرة عليها، فجمعت من معاني الغيرة أشرفها وأصدقها وأبعدها عن التنازع بين الناس بالباطل والتلاحي^(١) بينهم بالعرض الزائل، إذ كانت تجمع من معاني الغيرة الشريفة غيرة الحماسة للعقيدة وغيرة التنافس عليها وغيرة لصدق في منافستها، وأشرف ما في هذه الغيرة الشريفة أنها لم تكن تغرى أحد بغمط^(٢) حق لأحد. أو بادعاء حق لا يؤمن به من يدعيه في قرارة ضميره، لأنها لم تكن غيرة العرف الظاهر قصارها^(٣) الوجاهة عند الناس. بل كانت الوجاهة عند الله قصارها ومبدأها ومنتهاها، فلا يدعيها مدع الباطل، ولا يأمن إذا ادعاه بالباطل أن تذهب جميعا فلا تبقى لها عنده ولا عند الناس أو عند الله باقية. ومن ثم كانت غيرة بناء وصدق ولم تكن غيرة هدم وادعاء.

ومضى الناس يتنافسون، ويؤمرون أن يتنافسوا في مثل هذا الفضل فهم فيه متنافسون مجدودون. وقد رأينا كيف كان أناس في رجاحة أبي عبيدة وعثمان يتعارفون على هذا التنافس الذي لا يخجل فيه أخ من أخيه ولا صديق من صديقه. فلا ينقم مسبوق على سابق، ولكنه يغبطه^(٤) ويستحث عزائمه على سبقه ما استطاع.

وهكذا نظر عثمان إلى أكفائه، فوجد أنه لم يسبقهم في ميادين الجهاد بالسيف فألى^(٥) على نفسه ليسبقنهم في ميادين الجود والسخاء. وثابر على ذلك من أول أيامه في الإسلام إلى ختاك أيامه في الحياة، فهاجر إلى الحبة وهو يعلم أن ماله كله عرضة للضياع من جراء هذه الهجرة، فلم يبالي ما بقي منه وما ضاع. وتقدم في كل محنة أصابت المسلمين من فاقة أو قحط أو

(١) لحاء بلحوه: شتمه. وألحاه: لاهه. ولأحاه ملاحاة ولحاه: نازعه. (٢) أي جنود.

(٣) أي غايتها.

(٤) الغبطة: أن تمنى مثل حال المغبوط من غير زوالها عنه، فإن تمنيت زوالها فهو الحسد.

(٥) ألى: أقسم.

نقص في السلاح والعتاد، فبذل من المعونة والعطاء ما لم يبذله أحد من أمثاله في ثرائه، وما لم يبذله الذين هم أقدر منه على معونة أو عطاء، ولم يكن على أية حال بأغنى الأغنياء.

وكان له سماحة محبية حيث يجود ويتكلم بكلام التجار في مساوماتهم وهو على غاية الجود..

قال ابن عباس: «قحط الناس في زمن أبي بكر، فقال أبو بكر لا تقسسون حتى يفرج الله عنكم. فلما كان من الغد جاء البشير إليه فقال: لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برا وطعاما، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برا وطعاما. بعنا حتى نوسع على فقراء المدينة، فقال لهم عثمان: ادخلوا! فدخلوا فإذا ألف وقر^(١) قد صب في الدار، فقال لهم: كم تربحونى على شرائى من الشام؟ قالوا: العشرة اثنى عشر. قال قد زادونى. قالوا العشرة أربعة عشر. قال قد زادونى.. قالوا: العشرة خمسة عشرة. قال قد زادونى.. قالوا: من زادك ونحن تجار المدينة؟.. قال: زادونى بكل درهم عشرة.. هل عندكم زيادة؟.. قالوا: لا.. قال: فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة».

ويشير عثمان هنا - كما هو ظاهر - إلى جزاء الحسنة بعشرة أمثالها عند الله. ولن تعدم في هذا المقام ابتسامة سحن على فم متحذلق يقول: أما أعطى عطاءه وهو ينتظر الجزاء فى الآخرة؟. فلقد آمن بالآخرة ألوف من ذوى الأموال التى لا تبنى. وهم لا يبضون^(٢) بدرهم يوقنون من جزائه ما أيقنه عثمان.

(١) الوقر بكسر الواو: الحمل.

(٢) بثر بضموا: يخرج ماؤها قليلا قليلا، والبضيضة: المطر القليل وبض الماء يبيض بضاً وبضوضاً وبضيضاً: سال قليلا قليلا.

وكان يدخل عرف الإحسان فى صفقات التجارة، وهى تلك المعاملة التى اصطلىح الناس قديما على أنها شىء يتقدم فيه حساب المنفعة على حساب المودة بل القرابة، ومن يعبرون اليوم عن هذا المعنى ويقولون باصطلاح العصر من يعبرون عن معنى قديم تفاهم عليه المتعاملون بالبيع والشراء من أقدم الأزمنة، فقيل من أخباره فى هذه الخصلة: أنه ابتاع حائطا - أى بستانا - من رجل، فساومه حتى قام على عثمان فالتفت عثمان إلى عبد الرحمن بن عوف فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول أن الله عز وجل أدخل الجنة رجلا كان سمحا بائعا ومبتاعا وقابضا ومقبضا، ثم زاد البائع العشرة آلاف.

وأسعدت شمائل السماحة فيه بخصال أندر فى أبناء النعمة من خصال الكرم والإحسان، فقد يهون على المرء أن يتجرد من بعض ماله ولا يهون عليه أن يتجرد من بعض كبريائه وخيالاته وتعالیه على أنداده ونظرائه فضلا عن يعلمهم بالبسطة^(١) والجاه. وكان المأثور عن عثمان كما روى صاحب الصفوة عن مولاة له: «أنه كان لا يوقظ أحدا من أهله إلا أنيجده يقظان فيدعوه».

وروى الحسن أنه «رآه نائما فى المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجىء الرجل فيجلس إليه، ثم يجىء الرجل فيجلس إليه، كأنه أحدهم».

وربما أخرج كما يخرج أصحاب الحياء حين يجترئ على حياتهم من هو أولى بتوقيره^(٢)، فيبدر^(٣) منه بعض ما يسوء مخاطبه ثم لا يلبث أن يندم على بادرته ويتوب إلى الله، ومن قبيلى ذلك: غضبه على عمرو بن العاص حين واجهه بالزجر وهو يخطب الناس. فثارت ثورته أن يكون هو من يعظه عمرو بمثل ذلك الكلام وما فيه من إغراء بالفتنة عليه. قال عمرو: يا عثمان إنك قد ركبت بالناس النهابير^(٤) وركبوها منك، فتبت إلى الله عز وجل

(١) البسطة: السعة. (٢) أى تعظيمه.

(٣) البادرة: الحدة، وبدرت منه بوادى غضب: أى خطأ وسقطات عندما حقد.

(٤) الرمال المشرفة.

وليتوبوا. . فالتفت إليه مغضبا وأجاب قائل: وأنت هناك يا ابن النابغة؟ ثم لم يلبث أن رفع يديه وقال: أتوب إلى الله تعالى. ثم كررها فقال: اللهم إني أول تائب إليك.

فهذه شخصية سمحة، تساندت فيها مناقب السماحة، وأوشكت أن تستوفيها على مثال منقطع النظير فيمن عرفناهم من الأعلام بين الجاهلية والإسلام: كرم وحياء ودعة ورفق وأريحية ومروءة تعين على المروءات. فهل يقال على هذا: إنها شخصية سمحة وكف؟ هل يقال: إنها شخصية خلت من صفات البأس والصرامة، أو كان حظها من هذه الصفات ضئيلا لا يلتفت إليه؟ هل يقال أنها شخصية ضعيفة بكلمة متيقنة لا تردد فيها؟

من السهل أن يقال ذلك متابعة لجمهرة المؤرخين الذين درجوا على تعليل الحوادث الجلى^(١) في عصر عثمان بضعفه واستسلامه لمن حوله، وعلى رأسهم ابن عمه مروان بن الحكم. . فإن السهولة هنا توحى إلى المؤرخ أن يختار سبيلها ويعفى نفسه من النظر إلى طريق غيرها قد يعترضه فيها اعتراض من حيث لا اعتراض على سالك السبيل السهل الذلول.

لكن القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن السماحة نفسها قوة لا يضطلع^(٢) بها طبع ضعيف، وصعب على من ينظر في أعماله جميعا لا يكتفى منها بأعماله التي يبدو عليها الضعف والتردد، ولم يكن عهد من عهود سيرته يخلو من عمل يدل على قوة نفس، ومناعة خلق، وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر، وحسبنا من عهود سيرته ما أحاط بأطرافها من أول إسلامه إلى ختام حياته. فقد كان إسلامه تحديا قويا لخاصة أهله ثبت عليه مع بقاء العلية من قومه بين عدو للإسلام أو مسالم له على دخل^(٣) وسوء نية، وقد تلقى في أول خلافته صدمات لم يتعرض الفاروق لأخطر منها في جميع

(١) أي العظمى. (٢) أي يقوم.

(٣) الدخل: ما داخل الإنسان من فساد في عقله أو جسمه.

أيامه، ومنها هزيمة الجيوش وفناء بعضها بين عوارض الأجواء القصية^(١) وانقضاض الروم والحزر على أطراف الدولة الإسلامية الحديثة، وبعض موافقه فى تلك لأيام لا يمكن الرجوع به إلى رأى مروان بن الحكم. كوصاياه فى إعداد الحملات البحرية من المتطوعين بغير إكراه على أحد من المجندين، وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ولا يدعن لمن توعدوه به جهرة ورددوه على مسمعه ليل نهار.

كلا.. لا يقول القائل عن رجل كهذا أنه ضعيف، ثم يستريح إلى قوله، إلا أن يتغنى الراحة ولا يتغنى سواها.

ولكننا نحسب أن مكان عثمان من القوة والعزيمة هو المكان الذى يحتاج إلى التوضيح، ولا يتضح لأول نظرة فى سيرته وحوادث عصره. فليس هو بالمكان الذى يتراءى على القرب والعبد كأنه العلم البين الغنى عن التوضيح.. من الناس من يقتحم طريقه ولا ينتظر من يدلّه أو يدفعه، بلب لعله يقتحمه ويصر على اقتحامه كلما كثر المعارضون له وقل من يدلونه عليه. ومن شأنه أن يحسم تردد المترددين واعتراض المعارضين فلا يلبث أن يقودهم معترضا فينقادوا له معترمين.. ليس عثمان من هؤلاء..

ومن الناس من لا يعرف العزم تابعا أو متبوعا ولا يثبت عليه إذا عرفه إلا ريشما يدفعه الخطر عنه، وقد يشئ^(٢) عن عزمه بغير خطر لأنه من الوهن والعى^(٣) بحيث لا يقوى على الثبات. وليس عثمان من هؤلاء..

فليس هو مقتحما ولا هو منقادا عاجزا عن العزم والثبات، ولكنه وسط بين الاقتحام والانقياد لغيره فى جميع الأحوال.

(١) أى البعيدة. (٢) يلين ويميل. (٣) العجز.

هؤلاء أيضا يختلفون في مسوغ الانقياد للآخرين، فمنهم من ينقاد لمن هم أكبر منه ويأبى الانقياد لمن هم مثله أو دونه في المنزلة، ومنهم على نقيض ذلك من ينقاد لمن هم أئداده^(١) أو ينقاد لمن هم دونه، ويأبى الانقياد للنظراء والرؤساء.

ومسوغ الأولين الذين ينقادون لمن هم أكبر منهم أن الانقياد للأكبر طبيعة في كل علاقة بين رئيس ومرؤوس، ويدين بهذا المسوغ من لا حق له في الرئاسة أو من لا مطمع له فيها على الأقل إلى حين، فقد يكون صغيرا يرجو أن يكبر، أو خاملا^(٢) يرجو أن يعرف، أو مبتدئا يرجو أن ينتهى إلى العظمة كما انتهى إليها من يعظمهم من الرؤساء.

أما مسوغ الآخرين الذين ينقادون لمن هم أئداد لهم أو من هم دونهم فهو أنهم آمنوا أن ينسب انقيادهم إلى ذلة أو خوف، وبخاصة حين يكون المنقاد معروف الوجاهة^(٣) والرئاسة، مساويا لمن يدلّه ويشير عليه، أو راجحا^(٤) عليه بالمكانة والسلطان.

وكذلك كان عثمان في اهتدائه إلى الإسلام بنصيحة أبى بكر الصديق. فقد كان عثمان أجمع لأسباب الوجاهة من أبى بكر في عرف عصره. كان من أمية وأبو بكر من تيم، وكان أغنى منه وأقدر على مخالفته، وكان أبو بكر إلى جانب هذا وذاك يدعوه إلى الإيمان برسول يتبعانه معا فيقبل إن شاء الله، ويأبى إن شاء الله، ولا سلطان له عليه..

وكذلك كان عثمان في إصغائه لمروان بن الحكم حيث أصغى إليه، فقد كان مروان كاتبه وتابعه، وكان إصغائه له لغير خوف أو مذلة، وعلمًا منه بأنه محسوب عليه..

(٢) أى غير معروف.

(٤) أى متفوقة.

(١) جمع ند، والند: النظير والمماثل.

(٣) جهاء القوم: سادتهم وأشرفهم.

وسماحة عثمان واضحة هنا أيضا لأنها فرض كفروض الحساب لا يتأتى
 بغيره تقدير الحقيقة الملتبسة، فمن الناس من يأبى الانقياد للأنداد والرؤساء
 حسدا ونكدا^(١) ومن يأبى الانقياد للاتباع والأعوان تيبها^(٢) وتجبرا وذهابا مع
 شهوة الترفع^(٣) والاستعلاء، فهؤلاء كأولئك لا يعرفون السماحة ولا يوصفون
 بها، ولو لم يكن عثمان سمحا مبرأ من الحسد والنكد ومن شهوة الترفع
 والاستعلاء. لما أصغى إلى ند ولا إلى تابع، ولا سوغ الإصغاء إليهما بمسوخ
 من المسوغات ترضاه نفسه وتطمئن إليه.

من أشد ما يروى استدلالا على ضعفه وانقياده لرأى مروان بن الحكم
 قصة رواها ابن عباس عن أبيه وهو ثقة فيما عاينه وحكاه. قال:

«ما سمعت من أبي شيئا قط في أمر عثمان يلومه فيه أو يعذره، وما
 سألته عن شيء من ذلك مخافة أن أهجم منه على ما لا يوافقني، فأنا عنده
 ليلة ونحن نتعشى إذ قيل: أمير المؤمنين بالبواب. فقال: ائذنو له. فدخل
 فأوسع له على فراشه وأصاب من العشاء معه، فلما رفع قام من كان هناك
 وثبت أنا: فحمد عثمان الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا خال فيأني قد
 جئتك أستعذرك من ابن أخيك على . . سبني وشهر أمرى وقطع رحمى
 وطعن في ديني، وإني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب. إن كان لكم حق
 تزعمون أنكم غلبتم عليه فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم، وأنا
 أقرب إليكم رحما منه، وما لمت أحد منكم إلا عليا ولقد دعيت أن أبسط
 يدي عليه فتركته لله والرحم، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه . .

قال: «فحمد العباس لله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا ابن أختي، فإن
 كنت لا تحمد عليا لنفسك فيأني لأحمدك لعلي، وما على وحده قال فيك بل

(١) نكد عيشه: اشتد، ونكد البئر: قل ماؤها، ونكد فلان حاجة فلان: منعه إياها، ونكد

فلان فلانا: منعه ما سأله، ورجل نكد: شؤم عسر.

(٢) تيبها: تكبرا. (٣) بمعنى التعالى.

غيره، فلو أنك اتهمت نفسك للناس اتهم الناس أنفسهم لك، ولو أنك نزلت مما رقيت وارتقوا ما نزلوا فأخذت منهم وأخذوا منك ما كان بذلك بأس.

قال عثمان: «فذلك إليك يا خال، وأنت بينى وبينهم».

قال: «فأذكر لهم ذلك عنك؟».

قال: «نعم» وانصرف.

«فما لبثنا أن قيل: هذا أمير المؤمنين قد رجع بالبواب فقال: ائذنوا له، فدخل فلم يجلس وقال: لا تعجل يا خال حتى أؤذنك».

«فنظرنا فإذا مروان بن الحكم جالسا بالبواب ينتظره حتى خرج، فهو الذى ثناه عن رأيه».

«فأقبل على أبى وقال: يا بنى! ما هذا - يعنى عثمان - من أمره

شىء»..

فإذا أخذت هذه القصة على عجل فعثمان قد كان أداة لمروان يذهب به ويجيء كما يشاء ويمضيه^(١) على رأى أو يثنيه^(٢) عنه على هواه.

ولكننا إذا تخيلنا عثمان على هذه الصورة وجب أن نسأل: من غير مروان كان يصنع بعثمان هذا الصنيع؟ فإن الإجل إذا كان هين المقادة إلى هذا الحد هان على كل موسوس له أن يقوده، ولا سيما أقربهم إليه وألزمهم له من حرمه ومساكنيه فى داره. وقد عرفنا من تاريخ تلك الفترة أو ما قاربها أنه كان يستمع فى بيته إلى من يوغر^(٣) صدره على مروان فلا يستجيب لتوغيره، ومنهم نائلة بنت الفرافصة زوجته، وقد كان للزوجات أثر فى قصور ذوى السلطان ممن عرفوا بالقوة والسطوة لم ينقطع فى عصر من العصور..

(١) مضاء الأمر: نفاذه، ويمضيه هنا: أى يضره.

(٢) أى يرده.

(٣) الوغرة: شدة الحر، والوغر: تحريك الحقد والضغن والعداوة والتوقد من الغيظ.

فالطاعة هنا ليست بطاعة نفس ضعيفة لكل من يوسوس لها على مقربة منها، ولكنها طاعة اختيار لسبب له شأنه عند عثمان، وإن لم يكن له هذا الشأن عندنا نحن اليوم، أو عند ناقله من معاصريه . .

ونحن على يقين أننا اليوم نتردد في الجواب إذا سئلنا: «من غير مروان ابن الحكم كان خليفاً^(١) أن يعمل لعثمان عمل الكاتب الوزير الذي يعمل له كأنه يعمل لنفسه في سره وجهره؟» .

إننا نعرف رجال تلك الفترة المرشحين لمثل هذا العمل، فمن منهم يتولاه إذا استغنى عن مروان؟

ليس مروان بأفضل من يكتب للخليفة في عصره، ولكن الذين هم أفضل منه لا يرتبطون بهذا العمل ارتباطه، ولا يطالبهم عثمان بما يطالب به مروان من خدمته وولائه .

لقد ذهب عثمان إلى العباس يشكو علياً، ويكاد يعم بالشكوى بني عبد المطلب، لأنه يحسبهم ذوى^(٢) حق غلبوا عليه، فإذا خامرته^(٣) هذه الشكوى صواباً أو خطأً. وخامرته في أناس كبنى عبد المطلب على مثل ذلك الصواب أو ذلك الخطأ، فهو لا يتخذهم وزراء كتبة يعملون له ويرتبطون بخدمته كارتباط مروان ومن إليه. ولعله لو لم يشكهم لا يخطر له أن يكلفهم عملاً كعمل كاتبه ووزيره، فإنهم في مقام الأنداد ولهم شاغل عن عمل يرتبطون به إلى جواره . .

ولا نقول: إن عثمان لم يكن يستمع لمروان، ولا أنه كان يستمع للصواب من رأيه ويعرض عن الخطأ منه. ولكننا نريد أن نقول: إن ما بينهما ليس بطاعة الضعيف يلعب به القوى، وإنه اختيار له سببه الذي يوضع في ميزانه عند عثمان وغير عثمان حين يكون في مكانه .

(١) خليفاً: أى جديراً. (٢) أصحاب. (٣) خامره: خالطه.

والسؤال الواجب على أية حال فى كل مقام كهذا المقام هو: «ماذا كان أجدر وأجدى^(١) من هذا؟» فإن كان الجواب قاطعا فقد أمكن القطع بالخطأ، وإن كان الجواب يحتمل رأيا هنا ورأيا هناك فليس التردد بينهما بالدليل حتما على الضعف والاستسلام.

واتباع عثمان لمشورة مروان أو لمشورة غيره، لم يكن قط ذلك الاتباع الذى يعاب جملة أو يستحسن جملة، ولم يكن طاعة المستسلم الذى لا يدرى فيم يستسلم، ولكنه أشد ما يكون من قبيل الخيرة التى يشترك فيها سالكان لا يأمن أحدهما إذا ضل صاحبه. ومن حار معك كما تحار أقرب إليك ممن يهتدى وهو فى طريق وأنت فى طريق.

ونعود فنقول: إن شخصية عثمان بما اشتملت عليه من نواحي قوتها وضعفها شخصية سوية^(٢)، لا تناقض بين ما علمناه من أخبارها وأعمالها وبين ما نرجحه من المؤثرات فيها من فعل البيئة والعقيدة، وقد ذكرنا بين مؤثرات البيئة وراثته الأموية ويتمه فى صباه ونشأته فى بيت يتولاه غير أبيه، وانتماءه^(٣) من جانب الأمومة إلى بيت عبد المطلب، وعلينا أن نشير إلى مؤثر آخر يلحق بهذه المؤثرات ولا يورد على أنه مؤثر يتواتر فى جميع الحالات، ولكنه يورد لأنه لا يهمل فى اعتبار بعض النفسانيين.

ذلك السبب هو إصابته بالجدري فى شبابه. وعند بعض النفسانيين أن الجدري يعقب أثرا فى بنية المصاب به إذا أهمل علاجه - بعد سن الطفولة خاصة - وليس إهمال علاجه يومئذ بالأمر البعيد.

أما أثر العقيدة فمن الواجب ونحن نعرف معادن الشخصية الإنسانية أن نشبت من معايير^(٤) فى تقويم الأخلاق، والتفرقة بين فاضلها ومفضولها، ويجب هذا التثبت خاصة فى الزمن الذى يكثُر فيه الخلط^(٥) بين قيمة الفضيلة

(١) أجدى: أى أنفع وأفضل. (٢) السوى: المعتدل. (٣) أى انتسابه.

(٤) أى موازينه. (٥) أى المزج.

وبين التعريف بأسبابها، فيعذر بعض المقصرين أنفسهم أن يكونوا دون المؤمنين بالدين شجاعة وسخاء، ويقولون: إننا كنا خلقاء أن نقدم مثل إقدامهم، ونسخو مثل سخائهم، ونجود بالروح والمال مثل جودهم، لو كنا ننتظر الجزاء في اليوم الآخر أضعافا مضاعفة من النعيم والسعادة.

وتلك في الواقع خديعة الطبع اللثيم، وإنهم ليزعمون أنهم يشجعون ويجودون لو آمنوا بالجزاء بعد الموت والواقع أنهم واهمون أو مغالطون، وأن لهم أشباها صدقوا بالجزاء بعد الموت ولم يتركوا الجبن والشح^(١) ولا تركوا ما هو أقيح من الجبن والشح وهو السلب والغصب والعدوان على النفس والمال. فانظار الجزاء بعد الموت لا يبطل قيم الأخلاق، ولا يجعل الشجاع.

قلنا في كتابنا أبي الشهداء: «كذلك يقول من يقول: إن الأريحية التي سمت^(٢) إليها طبائع أنصار الحسين إنما هي أريحية الإيمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت في نصرته الحسين فيذهب لساعته إلى جنات النعيم. . . فهؤلاء الذي يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الإنسان إلى جميع أعماله، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان، وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها^(٣) الفرد طوعا أو كرها في خدمة نوعه، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين؟ إنهم لم يطلبوها لأنهم متقادون لغواية أخرى، ولأنهم لا يملكون عزيمة الإيمان ونخوة^(٤) العقيدة، ولا تلك القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت، ويقرعون بها وساوس التعليق بالعيش، والخنوع^(٥) للمتعة القريبة، فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف^(٦) الناس جميعا بجنات النعيم على نحو واحد، ومضى الناس على سنة واحدة

(١) الشح: البخل. (٢) من سمو، وهي الرفعة والرقى. (٣) أى بسببها.

(٤) نخوة: أى عظمة. (٥) الخنوع: الخضوع والذل. (٦) أى جهم.

في الأريحية^(١) والفداء. ومرجع الفرق إذن في آخر المطاف إلى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين».

وهذا الفرق بين الطبائع هو الذي نرجع إليه في رجل يمتاز بالشجاعة البالغة، ورجل يمتاز بالسماحة البالغة، ولا يمتازان بمزية واحدة، وكلاهما يؤمن بالثواب العقاب.

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين من يطمح إلى المثل الأعلى ولا يقنع بما دونه وبين من يكفيه من الجزاء أنه يأمن العذاب.

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين فرقتين من المسلمين تحارب كلتاهما في صف، وكلهم مصدقون بجزاء السماء، واطلاع علام الغيوب بما يطوونه^(٢) في الخفاء.

فالعقيدة الدينية لا تبطل سماحة عثمان ولا تغض^(٣) من قيمتها، وتظل هذه السماحة سماحة مقومة في معيار كل فضيلة ومعيار كل فاضل، لا يغير منها أن العقيدة بعثتها في مبعثها هذا، أو حركتها بعد سكون، أو خلقتها خلقا من حيث لم تكن. فقد كان مع عثمان أناس من منبته لم يعتقدوا كما اعتقد، ولم يزل بينهم وبين الاعتقاد حجاب^(٤) من عوج العقول وعمى الأبصار وأثرة الجهالة، وكل أولئك محسوب معدود في معايير الأخلاق..

ونعمم هذا القول في تقويم الفضائل والمواهب، فنفرق بين التقويم والتقدير وبين التعليل والتفسير، فليست كل فضيلة عللناها أو فسرناها شيئاً قد أبطلنا قيمته وقدره، وليس قولنا: إن هذه البروضة تنبت الرياحين والثمرات مبطلا ما بينها وبين الفلاة^(٥) المجدبة من الفرق والاختلاف. وليس قولنا: إن هذا الإنسان شجاع لأنه استمد مناقب الشجاعة من وراثته أو من تعليمه أو

(١) الأريحية: سعة الخلق. (٢) أى يخبثونه. (٣) أى تقلل.

(٤) حجاب: أى ستر. (٥) الفلاة: المفازة.

من اعتقاده ذاهبا بفضل الشجاعة، مسويا بينه وبين الجبان أو بينه وبين الشجاع الذى هو دونه فى شجاعته وإقدامه . .

فالأسباب تثبت الفضائل والمواهب ولا تنفيها، وهى من أجل هذا جديرة بالإثبات، وجديرة بالطلب، وجديرة بالثناء، وإن من نعرف أسباب حسنه لحسن، وإن من نعرف أسباب قبحه لقبيح، فلن يصبح الحسن قبيحا لأنه معروف السبب، ولن يصبح القبيح حسنا لأنه معروف السبب، وإن قل العجب مع عرفان السبب كما قيل، فقد يذهب العجب ولا يذهب الإعجاب . .

والشاعر قد بلغ غاية الإعجاب بيحيى حفيد على بن أبى طالب حين قال:

كدأب^(١) على فى المواطن كلها

أبى حسن والعرق من حيث يخرج

وأين له من ذاك؟ لا أين! إنه

إليه بعرقيه الزكيين محرج

تفسير للشجاعة هو غاية التقدير، وأبطال للعجب هو غاية الإعجاب،

وإنما يتجنى على الفضائل الإنسانية بتفسير أسبابها من يتحمل^(٢) للنوع

الإنسانى كأنه يتمحل لعدو لا يرضيه أن يوصف بخير إلا أن يتعلل لمعابته

بعلة. ويبطل العجب منه والإعجاب به سواء.

(٢) المحل: المكر والكيد.

(١) الدأب: العادة والشأن.

ثقافة عثمان

تعنى فى تراجم عظماء الصدر الأول من الإسلام بالكلام على ثقافتهم ومصادر هذه الثقافة من معلومات زمنهم، ونرى أنها من العناصر التى لا غنى عنها فى التعريف بمنزلهم وكفائاتهم، لأن هذه الكفايات قسمة بين قوة النفس والخلق وبين قوة الفهم والتفكير، ولا تخفى علاقة ثقافتهم بما يفهمون ويفكرون..

وبداية إن ثقافة الأقدمين غير ما نريده بكلمة الثقافة فى العصر الحديث، ولكنه فرق يحسب لأقدمين ويشهد باجتهدهم ودرائتهم بالاستفادة من القليل المبعثر حتى لا يستفاد اليوم من الكثير المجموع الميسر لطالبيه. ولو أننا جعلنا ودائع الورق مقياسا للثقافة لكانت أوراق تلميذ مبتدئ فى عصرنا أضخم من أوراق نوابغ^(١) المثقفين فى صدر الإسلام، ولكنهم كانوا بهذا المحصول القليل يعملون ما يعجز نوابغنا وأبطالنا، ويتكلمون فى العضلات^(٢) فإذا بالكلمة الوجيزة^(٣) فصل الخطاب.

ونخال أن الاختلاف بيننا وبينهم فى ثقافتنا وثقافتهم يتلخص فى فرق واحد يحصر جميع الفروق، وذلك أن الكلمة قد رخصت فى زمن المطبعة وإباحة الكلام أو ابتداله لمن لا يحسنه فى قول ولا استماع.

كانت الكلمة تسمع وتحفظ، وتنقل من سلف إلى خلف، وتندمج فى تجربة كل سامع كأنها زيادة عضوية تتوالد ولا تموت. كانت بضعة^(٤) من حياة..

كانت تصان كما تصان ذخائر الآباء والأجداد، ولو أنها صينت هذى الصيانة لأول مرة فى عصر التنزيل لما استغرب أحد تقديسهم للكلمة التى

(١) جمع نابغة، والنابغة: الرجل العظيم الشأن. (٢) العضلات: أى الشدائد.

(٣) الوجيز من الكلام: القصير. (٤) بضعة: أى قطة.

يعلمون أنها قدسة، ويصونونها إيماناً بالفريضة الإلهية. وما فى ذلك غرابة عند الأقدمين أو المحدثين. ولكنهم فعلوا ذلك قبل عصور التنزيل، وتعودوا الحرص على ذخيرتها الإنسانية قبل أن يتعودوا الحرص عليها وهى ذخيرة سماوية يدخرونها لحياة أبقي من حياة الدنيا. وهى حياة الخلود..

إليك مثلاً علمهم الذى كانوا يسمونه علم الأنساب: ما مبلغه من العلم بالقياس إلى العلم الذى يقابله فى زماننا وهو علم التاريخ؟ أين ذلك مما يستوعبه اليوم من النقد والتحليل والشرح والتفصيل والتفريع والتأصيل؟

لكن علم الأنساب هنالك وشائج^(١) أعراق وأحساب. وعروق فى الأبدان والأنفس لا يدفنها التراب..

إذا عرف أحدهم نسبا فقد عرفه ليهتز بفخره، أو يهتاج بعداوته، أو يقرنه بفعال صاحبه، ويشهدها فى ذريته وخلفائه.

وإذا عرف ذلك النسب فهو فلان هذا الذى أمامه، يساجله^(٢) المودة أو البغضاء. ويذكر ما كان له ولآبائه من عزة ومضاء^(٣) أو ذلة واستخذاء. ويضيف إلى كل نسب رواية عن ملحمة^(٤). أو طرفة^(٥) من حكمة، أو ملححة من فكاهة. ولا يجد بينها وبين أنباء نهاره فاصلا بين قديم وجديد أو بين مدثور^(٦) مهجور، وحاضر مسموع ومذكور..

وقل مثل ذلك فى أمثال العرب وشواهدا ومعارض الاستشهاد بها فى مواضعها..

(١) أى روابط وعلاقات. (٢) يساجله: يباريه ويفاخره. (٣) أى قطع.

(٤) الملحمة: الواقعة العظيمة القتل. (٥) ما يستطرف لحداثته.

(٦) من قولهم: دثر لرسم: درس.

وقل مثل ذلك فى أشعارها ومدائحها وأهاجيتها وبلاغتها ومحاسن
ألفاظها ومغازيها^(١) . .

كل ممدوح كائن حى من مجد ومنعة وجود ومطاولة بالغلبة والعطاء .
وكل ممدوح كائن حى بما استجاشه^(٢) من طمع، وما استقبله من أمل، وما
خلفه وراءه من عطف وحنين، وما أثار فى كلامه من تنافس وتناظر، أو من
سوابق بين عشائرتهم تذكر وتستعاد، وتعود معها محاسن آباء وأجداد ومساوئ
أضغان^(٣) وأحقاد . .

فإذا سطرت تلك الأمثال والقصائد كلام فى الورق فهى بضع صفحات
مختزلات^(٤)، وإذا تمثلتها خوالج بين الصدور فهى حيوات تضاف إلى
حياة . .

لقد كانوا يعيشون عيشهم المحمل بتجاربه وعواقبه كلما تكلموا أو
استمعوا إلى متكلم من روايتهم وبلغائهم وثقاتهم، فلا جرم كانوا يفاخرون
أمم العالم، بأنهم يتكلمون .

وكان عثمان على علم بمعارف العرب فى الجاهلية ومنها الأنساب
والأمثال وأخبار الأيام . وساح^(٥) فى الأرض فرحل إلى الشام والحبشة وعاشر
أقواما غير العرب فعرف من أطوارهم وأحوالهم ما ليس يعرفه كل عربى فى
بلاده . وجدد فى رحلاته تجديد الخبرة والعمل معارف البادية عن الأنواء^(٦)
والرياح ومطالع النجوم ومقارناتها فى منازل السماء، وهى معارف القوافل
والأدلاء^(٧) من أبناء الصحراء العربية، وأبناء كل صحراء . .

(١) مغازيها: أى معانيها . (٢) أى تحرك فى نفسه وقلبه . (٣) بمعنى أحقاد .

(٤) الاختزال: الحذف والإقطاع . (٥) ساح عن الأرض: ذهب .

(٦) الأنواء: جمع نوء، والنوء: النجم مال للغروب .

(٧) الأدلاء: جميع دليل، وهو من يدل على الطريق .

وأسلم فكان من أئمة المسلمين في أحكام الدين وأحفظهم للقرآن والسنة. روى عن النبي ﷺ قرابة مائة وخمسين حديثاً. قال محمد بن سيرين وهو يتكلم عن الصحابة: «كان أعلمهم بالمناسك عثمان، وبعده ابن عمر».

وكان أقرب الصحابة إلى مجرى الحوادث بين المسلمين والمشركين، فكان من سفراء الإسلام في غير موقف من مواقف الخلاف أو الوفاق. تارة بين المسلمين وأعدائهم وتارة بينهم وبين الأسرى منهم في أرض الأعداء..

وكان كاتباً يجيد الكتابة، فاعتمد عليه النبي ﷺ في تدوين الوحي واعتمد عليه الصديق في كتابة الوثائق الهامة، ومنها الوثيقة التي عهد فيها بالأمر بعده لخليفته الفاروق.

وزودته معرفته بالأخبار والأنساب وسياحته في البلاد بزاد حسن من مادة الحديث مع ذوى الكمال من الرجال. قال عبد الرحمن بن حاطب: «ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدث أتم حديثاً، ولا أحسن، من عثمان بن عفان، إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث»..

ولم يكن حديثه لغواً ولا ثرثره يزجى^(١) بها الفراغ بين أهل الفراغ، بل كان من تلك الأحاديث التي كان يتوق^(٢) إليها النبي ﷺ في بعض أوقاته فيتمناها، وتروى السيدة عائشة من ذلك: أنها سمعت النبي ذات ليلة يقول: لو كان معنى من يحدثنا؟ قالت: يا رسول الله أفأبعث إلى أبي بكر؟ فسكت. ثم قالت: أفأبعث إلى عمر؟ فسكت. ثم دعا وصيفاً^(٣) بين يديه فساره فذهب فإذا عثمان يستأذن، فأذن له فدخل فتناجاه^(٤) عليه السلام طويلاً..

وينقل عنه الرواة كثيراً من شواهد الأمثال والأشعار، وكأنه كان ينظم الشعر إن صح ما قيل أنهم وجدوا في خزانته وصية مكتوبة على ظهرها:

(١) يزجى: أى يدفع ويسوق، والمراد الأول. (٢) يتوق: يشتاق.

(٣) الوصيف: الخادم. (٤) نتاجه: ساورته، وتناجوا: تساروا.

غنى النفس يغنى النفس حتى يجعلها

وإن غصها حتى يضر بها الفقر

وما عسرة فاصبر لها إن لقيتها

بكائنة إلا سيئبها يسر

ومن لم يقاس الدهر لم يعرف الأسى (١)

وفي غير الأيام ما وعد الدهر

ولكن هذا الشعر وغيره مشكوك في نسبه إليه .

إلا أنه كتب في خلافته رسائل من النمط الذى لا يرتضى الظن نسبه

إلى كاتبه مروان . .

ومن هذه الرسائل كتاب إلى عماله يقول فيه :

« . . استعينوا على الناس وكل ما ينوبكم (٢) بالصبر والصلاة، وأمر الله

أقيموه ولا تداهنوا (٣) فيه، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك . وارضوا من

الشر بأيسره، فإن قليل الشر كثير، اعلموا أن الذى ألف بين القلوب هو الذى

يفرقها ويباعد بعضها عن بعض . سيروا سيرة قوم يريدون الله لثلا تكون لهم

على الله حجة» .

ومنها كتاب إلى العمال يقول فيه : «إن الله ألف بين قلوب المسلمين

على طاعته . وقال سبحانه : «لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين

قلوبهم (٤) . . وهو مفرقها على معصيته، ولا تعجلوا على أحد يحد قبل

استيجابه (٥) فإن الله تعالى قال : «لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر» (٦)

(١) الأسى : الحزن . (٢) ينوبكم : أى ينزل بكم ويصيبكم .

(٣) دهن : نافق، والمداهنة : إظهار خلاف ما يبطن . (٤) الآية : ٦٣ من سورة الأنفال .

(٥) أى استجوابه ومحاكمته . (٦) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الغاشية .

ومن كفر داويناه بدوائه . ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره إن شاء الله» .

ومن كتبه إلى العمال :

«أما بعد . فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة^(١)، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن عدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فتعطوهم الذى لهم وتأخذوا بما عليهم . ثم تشنوا بالذمة^(٢) فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم . ثم العدو الذى تتابون^(٣) فاستفتحوا عليهم بالوفاء» . .

ومن كتبه إلى الجباة :

«أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم» .

وكتب إلى أمراء الأجناد: «أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم^(٤) . وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملامنا . لا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه» .

وبعض هذه الكتب يبدو ويختمه بذكر آيات من القرآن تتوالى فى بيان ما يدعوهم إليه وينهاهم عنه، وليست هى مما يكتبه مروان، لأنه لم يكن

(١) أى يجمعون الاموال .

(٢) أى أهل الذمة .

(٣) انتابهم انتيابا: أتاهم مرة بعد أخرى .

(٤) أى المدافعون عنهم .

يحفظ القرآن حفظ عثمان، وليس ما تقدم من الوصايا بالذى يكتبه مروان غير على عليه. لأنها هي الوصايا التي هي أخرى^(١) بحياء عثمان وألفته ووفاته ورحمته لليتيم وإيثاره الموادة وكرهته اللجاجة^(٢) فى القصاص. لهذا نقول: إنها من أسلوبه الذى يوائمه^(٣) - رضى الله عنه -، وأسلوبه ثمة^(٤) هو ترجمان نفسه. فإن الرجل يكتب لغيره ليقنعهم بما يحس أنه مقنعه لو كتب إليه. وهذه كتابة عثمان لا كلفة فيها ولا محاولة ولا إطناب، إلا الدعوة القوية فى استقامة وسهولة وبساطة لا تقدر فى الناس إنهم يخالفون ما وضح لهم واستقام بين أعينهم من الأمور. وكذلك كان عثمان يعقل ما يطبعه وما يطاع. وكذلك استجاب لدعوة أبى بكر حين دعاه إلى الإسلام، فما هو إلا أن اتجه ذهنه مستقيماً إلى حقيقة الأصنام وحقيقة الإسلام حتى قال لصاحبه: نعم.. هو ذاك..

أما الخطابة فقد كانت على هذا النهج من الكتابة السهلة القوية، وربما ارتج^(٥) عليه فلا يبتس^(٦) لذلك، ولا يزيد على أن يقول ما معناه: سيأتى القول حين الحاجة إلى القول..

ومن خطبه فى أوائل الفتنة: «إن الناس يبلغنى عنهم هنات وهنات^(٧)، وإنى والله لا أكون أول من فتح بابها وأدار رحاها. ألا وإنى زام نفسى بزمام^(٨) ومجمها بلجام.. ومناولكم طرف الحبل، فمن أتبعنى حملته على الأمر الذى يعرف، ومن لم يتبعنى ففى الله خلف منه وعزاء عنه. ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشاهداً: سائق يسوقها على أمر الله وشاهد يشهد عليها بعملها. فمن كان يريد الله بشيء فلييسر، ومن كان إنما يريد الدنيا فقد خسر».

(١) أى أجد. (٢) اللجاجة: القصاص، المبالغة فى تنفيذه.

(٣) يوائمه: يلائمه ويناسبه. (٤) ثمة: أى هناك.

(٥) ارتج عليه: توقف ولم يقدر كأنه أطبق عليه. (٦) أى فلا يحزن.

(٧) أى أشياء وأشياء. (٨) الزمام: المقود.

ومن خطبه بعد تفاقم الفتنة خطبة على الروية لم تكن مرتجلة قال فيها:

«... آفة^(١) هذه الأمة وعاهة هذه النعمة، عيابون طعانون، يرونكم ما تحبون، ويسترون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون. أمثال النعام يتبعون أول ناعق، أحب مواردهم إليهم البعيد، لا يشربون إلا نعصا^(٢) ويردون إلا عكرا، لا يقوم لهم زائد... وقد أعيتهم الأمور..»

ألا فقد والله عتتم على ما أقرتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم^(٣) بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم، ولنت لكم وأوطأتمكم كنفى^(٤) وكففت عنكم يدي لساني فاجترأتم على. أما والله لأننا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأحرى إن قلت: هلم أتى إلى. ولقد أعددت لكم قرانا وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن نابي وأخرجتم مني خلقا ولم أجن أحسنه، ومنطقا لم أنطق به، فكفوا عني ألتتكم وعيبكم وطعنكم على ولا تكلم. فإني كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم رضيت مني بدون منطقي هذا. إلا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي، ولم تكونوا تختلفون عليه...»

وهذه الخطبة هي التي قام مروان بعدها يهم بالكلام ويتكلم متوعدا فأسكته عثمان. ونرى أنها قيلت على الروية^(٥) لأنه خرج من داره وهو يعلم باجتماع الوفود وتحفزها ولم يفاجأ منها بأمر لم يكن يعلمه وهو ينوي الخطابة فيها..

وهذه النماذج من كتبه وخطبه لا تورد في هذا المقام من ناحية البلاغة

(١) بمعنى العاهة والداد.

(٢) لعلها: نعصا، والنعص: أن تورد إبلك الحوض، فإذا شربت صرفتها وأوردت غيرها.

(٣) فمعكم: أي قهركم. (٤) كنفى: أي جانبى. (٥) الروية: التفكير فى الأمر.

والبيان مستقلة عن مواضعها ودواعيها. ولكنها تورد قبل كل شيء لأنها - مع ما تبديه من بيانه - تبدى لنا أسلوب الخليفة الثالث في علاقته برعاياه من خلال أسلوب الكتابة والخطابة. فقد كانت أوائل كتبه أشبه الكلام بما نسميه اليوم «الأسلوب الرسمي» أو أسلوب التشريع والوثائق القانونية: تبليغ وتقرير بغير تنميق^(١) ولا محاولة تأثير. وهو كذلك أسلوب الخلافة التي تعلم أن التفاهم بينها وبين من تخاطبهم مفروغ منه متفق عليه مستغن عن الإقناع وعن المسحة بين السامع والمتكلم. ثم يستطرد الموقف بالخليفة إلى ما رأيناه في خطابه الأخير. وأول ما يبدو منه أن الراعى والرعية لا يشوبون^(٢) إلى قسطاس^(٣) واحد. وتلك بوادر الملك تظهر في مضامين القول كما ظهرت على ما نراه في الأعمال والنيات.

(١) تنميق: أى تزيين وتحسين.

(٢) يتوبون: يرجعون.

(٣) القسطاس: الميزان.

الفصل الثالث من إسلامه إلى خلافته

١ - شؤونه:

مضى من إسلام عثمان إلى مبايعته بالخلافة نيف وثلاثون سنة، شهد فيها من الغير^(١) فى تاريخ الجزيرة العربية وفى تاريخ العالم من حولها ما لم يعهده العالم قط قبل البعثة المحمدية، وشهد فيها عهد الدعوة النبوية وعهد الخلافة فى أوجها^(٢) على أيام الصديق ثم على أيام الفاروق.

وجمعت المصاهرة بين حياته الخاصة وحياة النبى ﷺ فى بيته مع اتصاله به فى الدعوة الكبرى من سنتها الأولى، فلم يفته شىء من أخبار النبوة الخاصة والعامة فى حياة النبى، ولم يفته شىء بعدها من أخبار الخلافة فى حياة الشيخين. ولم يفته بعبارة أخرى شىء مما نسميه اليوم بأعمال التأسيس فى الدولة الإسلامية.

تزوج من السيدة رقية بنت النبى ﷺ، وهاجر بها إلى الحبشة، فكان أول المهاجرين إليها، ثم هاجر بها إلى المدينة فمرضت للعناية بها، فماتت يوم ورد البشير إلى المدينة بنصر المسلمين وهزيمة قريش فى تلك الوقعة الحاسمة، وقيل: إن عثمان كان قد أصيب بالجدري قبل الخروج إلى بدر، فحال مرضه ومرض زوجته دون الخروج إليها مع جلة^(٣) الصحابة..

وكنت غبطة^(٤) عثمان بمصاهرة النبى ﷺ عظيمة، وحزنه لانقطاع هذه الصلة أعظم، فلم ير بعد ذلك إلا محزوناً مهموماً لفقد زوجته وانقطاع صلته ببنبيه وأكرم الناس عليه، ورآه النبى على تلك الحال فسأله: «ما لى أراك مهموماً؟» قال فيما رواه سعيد بن المسيب: «وهل دخل على أحد ما دخل

(١) غير الدهر: أحداثه. (٢) الأوج: ضد الهبوط. (٣) جلة: أى كبار وعظماء.

(٤) غبطة: أى فرحة.

على يا رسول الله؟! ماتت ابنة سول الله التي كانت عندي، وانقطع ظهري، وانقطع الصهر بيني وبينك» فطيب النبي خاطره وزوجه أختها أم كلثوم، وبقيت معه إلى أن توفيت في السنة التاسعة للهجرة بعد بنائه^(١) بها بست سنوات.

وأشهر الروايات على أنه سمي بذى النورين، لأنه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتي النبي ﷺ، «ولم يعلم أحد تزوج بنتي نبي غيره».

ويقال إنه سمي بذلك لأن النبي ﷺ قال: «فيه نور أهل السماء ومصباح أهل الأرض» ويقال: إنه كان يختم القرآن كل ليلة في صلاته «فالقرآن نور، وقيام الليل نور».

ومما خرجه الحافظ السلفي في سياق هذه الكنية: إن إسماعيل بن علين أتى يونس بن خباب لسمع منه، فسأله يونس «من أين أنت؟» فقال: «من أهل البصرة» قال يونس: «أنت من أهل المدينة الذين يحبون عثمان بن عفان وقد قتل ابنتي رسول الله ﷺ!..» فقال يونس ما فحواه^(٢): «أترأه قتل واحدة فزوجه الثانية من أجل ذلك!».

وجواب إسماعيل مفحم^(٣)، وقصته مع يونس بن خباب عبرة من عبر الدعوة «السياسية» إذا لجت^(٤) بالنفوس وغلبت على العقول، فما يسمى عثمان من أجله بذى النورين يجرى على لسان صاحب الهوى في النقد والمعابة فينعاها عليه، وينعاها على البلد الذي يحبه، ويحسبه قتلا لبنتين من بنات النبي ولا يدور بخلده^(٥) جواب إسماعيل أن من قتل واحدة لا يعطى غيرها ليقتلها، ولا يرد على باله ما لا يغيب عن مثله من حديث ابن عباس حيث يروى عن النبي أنه قال لعثمان مواسيا بعد موت رقية: «والذي نفسى

(١) بنى بامرأه: أى زف ودخل عليها. (٢) أى ما معناه. (٣) يقال: أقحمه، أى أسكته.

(٤) أى ترددت أو كنتزت وعظمت. (٥) بخلده: أى بقلبه وعقله.

بيده ولو أن عندي مائة بنت تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المائة شيء...» .

وحقيق بهذه القصة أن نحضرها أخلاذنا^(١) ونحن مقبلون على العلل والتعلات في الدعوة لعثمان والدعوة عليه، فإننا لو اردون^(٢) على علل كثيرة وتعلات^(٣) أكثر منها، تسبقها الرغبة في خلق المحاسن أو المآخذ فل تعيا مرة بخلق ما تريد .

ومنذ اليوم الذى أسلم فيه عثمان لزم النبي حيث كان، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه، أو فى مهمة من المهام التى يندب لها، ولا يغنى أحد فيها غناؤه . شأنه فى هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعا، كأنما هى خاصة من خواصهم رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين بغير حاجة إلى مفاضلة وترجيح . .

فمن الصحابة من كان ييرح^(٤) المدينة أو مكة فى عمل من أعماله، ومن كان يحضر الغزوات ويغيب عما عداها فى مصالحه ومصالح أهله، ما عدا أبا بكر وعمر وعثمان وعليا، فقد أصبح عملهم بعد إسلامهم مقترنا بعمل النبي فى مقامه وسفره، وقد يقترون به فيما عم أو خص من أمره - صلوات الله عليه -، وتلك وشيجة من وشائج الواقع غير مدبرة ولا مقدرة، تجمع بين النبوة والخلافة كما ينبغى أن تجتمعا بحكم القرابة اللدنية بين المهمتين المتلازمتين . .

وترك عثمان تجارته الواسعة لمن يتولاها عنه من وكلائه وذوى قرباه، وجع بيته لمال المسلمين قبل أن يكون للدولة الإسلامية بيت مال، فلم يتطلب عمل الرسالة مددا من زاد السلم أو الحرب إلا نهض به عثمان وحده، أو كان أول ناهض به مع القادرين على بذل المال فى هذا السبيل . .

(١) جمع خلد . (٢) أى مقبلون .

(٣) جمع تعلقة، وهى ما يتعلل به . (٤) أى يغادر ويترك .

شكا المهاجرون تغيير الماء بالمدينة ولم يجدوا فيها غير بئر واحدة يستسيغون ماءها، وكانت عند يهودى يغالى بثمانها، فاشترى منه نصفها وغلبه دهاء، لأنه قسم سقياها يوما له ويوما لصاحبها، وأباح السقيا منها بغير ثمن فى يومه، فكان طلاب الماء يأخذون منه كفايتهم فى ذلك اليوم. . ونظر اليهودى فرأى أنه لا ينتفع من نصفه الباقي له بكثير أو قليل فلما باعه بالقليل بعد المغالاة فيه وهبها عثمان لمن يستقى منها فى جميع الأيام.

ولما ندب النبى المسلمين لغزوة تبوك لم يكن عندهم من المال ما يقوم بنفقاتها، لبعدهم شقتها^(١) واشتداد القيظ^(٢) فى وقت الخروج إليها، فتكفل عثمان وحده بثلك نفقاتها، وتبرع للمجاهدين بالمطايا والأطعمة. وجاء بألف دينار فى كفه فشرها فى حجر الرسول، وكرر ذلك غير مرة على ما جاء فى جمهرة الأخبار. .

واشترى أرضا ليزيدها فى بناء المسجد بذل فيها عشرين ألف درهم أو خمسة وعشرين ألفا. ولم يقصر عن معونة يستطيعها فى عسرة أو مجاعة، مدعوا إلى ذلك أو ملييا من نفسه داعية النجدة والسماحة، فلم يضارعه^(٣) فى سخائه أحد من أقرانه، وكان يحق أسخى الأغنياء وأغنى الأسخياء. .

وعهد إليه النبى فى السفارات التى يخشى خطرها. فلما كانت حملة الحديبية التى تأهب فيها النبى لدخول مكة دعا بغمر ليعثه إلى رؤساء عشائرها، فقال عمر: «إن قريشا تعرف عداوتى إياها وغلظتى عليها، وليس بين القوم أحد من بنى عدى ينتصر لى، فلو بعثت يا رسول الله عثمان إليهم فهو بينهم أعز منى». وقد بعثه النبى فلم يسلم من سفاهة السفهاء ولم يمنعهم أن يبطشوا به لولا أن تصدى لهم ابن عمه إبان بن سعيد بن العاصى، وشاع يومئذ فى معسكر المسلمين أن المشركين قتلوه، وكانوا قد احتبسوه ثلاثة أيام يتشاورون فى أمره. فلما دعا النبى جنده إلى بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة،

(١) الشقة: السفر البعيد. (٢) القيظ: حرارة الصيف. (٣) يضارعه: يساويه.

وضع يده اليمنى على يده اليسرى وهو يقول: هذه بيعة عثمان.. «اللهم هذه عن عثمان فى حاجتك وحاجة رسولك»..

وسياتى من أمر الدعوة على عثمان أنهم كانوا يحسبون عليه أنه لم يشهد بدرا ولم يشهد يوم البيعة، ولا لوم عليه فى المرتين ولا سيما التخلف عن بيعة الشجرة، إذ كان قد تخلف فيما هو أخطر وأعسر من حضور المبايعة كما حضرها سائر الصحابة، وهذه وما تقدمها من حديث يونس بن خباب بعض أفانين^(١) التهم التى تخلفها الفتنة، ويعلم بطلانها القائل قبل المستمع إليها..

ومن المهام التى اختصه النبى بها أنه كان يكتب له الوحي عند نزوله، وكان - عليه السلام - يناديه متحيبا ويقول له وهو يملئ عليه: «أكتب يا غثيم^(٢)». واستخلفه على المدينة فى غزوته إلى ذات الرقاع، وأرسله إلى اليمن مستظلمعا حين كانت أمارتها إلى على، وكاد أن يفرده بالعمل فيما نسميه اليوم أمانة السر أو الكتابة الخاصة، وهى أمانة يضطلع بها من يوثق بصدقه وكياسته^(٣) ولطف أدائه لما يؤتمن عليه من رسالة أو سفارة..

لا جرم يروى عنه أبو عبد الله الجبيري فى رواية راجحة: إنه كان موضع سر النبى فى مرضه - عليه السلام -، وفى هذه الرواية ينقل عن السيدة حفصة أنها حدثت السيدة عائشة تذكرها بما كان من هذه المسارة فقالت: «إنى كنت أنا وأنت عند رسول الله ﷺ فأغمى عليه فقلت لك: أترينه قد قبض؟ فقلت: لا أدرى، ثم أفاق فقال: افتحوا له الباب، فقلت لك: أبوك أو أبى؟ فقلت: لا أدرى، ففتحنا فإذا عثمان. فلما رآه النبى ﷺ قال: ادنه. فأكب عليه فساره بشيء لا أدرى أنا وأنت ما هو ثم رفع رأسه

(١) أفانين: أى أساليب.

(٢) لعلها «يا غثيم» بالعين، وهو أسلوب تصغير، الغرض منه المداعبة والتدليل.

(٣) كياسته: أى عقله.

فقال: أفهمت ما قلت لك؟ قال: نعم. قال: ادنه. فأكب عليه أخرى مثلها فساره بشيء ما ندرى ما هو، ثم رفع رأسه فنقال: أفهمت ما قلت لك؟ قال نعم. سمعته أذنأى ووعاه^(١) قلبى. ثم أمره فانصرف..

كان بين الصحابة منزلة من منازل الفخر يعتدون بها ويتعارفون عليها وهى منزلة الرضى من رسول الله إلى يوم وفاته، وكان من الكلمات الجارية على الألسنة فى معرض الثناء أن يقال عن الرجل: إنه توفى رسول الله وهو عنهم راض..

فهذه المنزلة كانت من مفاخر عثمان التى يذكرها ويذكرها له من يحمده، وكان فى الطليعة ممن تحسب لهم هذه المفخرة بين الصحابة، وإنما كان شأنه^(٢) يتحدثون بتخلفه عن وقعة بدر وعن بيعة الرضوان لينزلوا به شيئاً من منزلته تلك التى ليس عليها خلاف.

وصارت الخلافة إلى الصديق، وهو الذى أسلم عثمان على يديه، وطالت الصحبة بينهما من قبل الإسلام، وألفت بينهما مشابه كثيرة فى الطباع والأخلاق، وكان أبو بكر يعتقد فى عثمان الحزم كما قال له يوم فاتحه فى أمر إسلامه، وليست هى من كلمات المجاملة فى مقام الترغيب والارتفاع فما كان أبو بكر بالرجل الذى يرسل الكلمات جزافاً ولا بالمتكلم الذى يعيبه أن يجامل أحداً بالصدق الذى يرضيه.

ولم يكن مستغرباً بعد طول الصحبة أن يكون عثمان أقرب المقربين إلى الخليفة الجديد فى أعمال سياسته وأواصر^(٣) مودته، ولكننا هنا أمام عهد نادر من عهود الإنسانية تتقدم فيه النظرة إلى الدعوة القائمة على كل نظرة إلى ما عداها. وقد يحب الإنسان من يحب لأنه أقرب إلى اعتقاده فى نصره الدعوة، والأمانة لها، والقدرة على خدمتها، وإن هذه الظاهرة العميقة

(١) رعاه: أى حفظه. (٢) شأنه: كارهوه وخصومه. (٣) أى روابط.

الأغوار لمن أقوى ظواهر العهد وأحقها من المؤرخ بالانتباه إليها، وقد سبقت الإشارة إلى فعلها اللدني في الجمع بين النبوة والخلافة. وتخصيص الخلفاء الراشدين على غير تدبير ولا تقدير بملازمة النبي في مقامه وسفره وغيابهم حين يغيبون بإذنه وفي رسالة من رسائل الدعوة النبوية، ثم ها هي تتكرر في لتقريب بين الخليفة الأول وبين أوفق الصحاب لمعونته وملازمته، والاطلاع على مقاصده ونياته، فلم يكن بين أبي بكر وعمر من الصحبة قبل الإسلام ولا من المشابهة في الخلق بعض ما كان بين أبي بكر وعثمان، ولكن أبا بكر وعمر كانا أوفق اثنين بين الصحابة للعمل معا في مهام الخلافة الأولى، فتلازما وتشاورا وتقارب بينهما في الدعوة ما تباعدا في الخلق والخليفة، حتى كان من يريد الوقية يسأل أبا بكر متجاهلا: والله ما ندرى آنت الخليفة أم عمر؟ فيقول - رضى الله عنه - : هو لو كان شاء.. .

ويحق لنا أن نقول: إن الأمر لم يكن باختيار أبي بكر ولا باختيار عمر، ولكنه كان باختيار المصلحة العليا التي غلبت على كل مصلحة في ذلك العده النادر، وإنها لمن وحى الله.. .

في أيام أبي بكر لم يكن أحد بعد عمر أقرب إليه من عثمان، وكتب أبو بكر عهده الأخير وهو على سرير الموت وعثمان إلى جواره يملى عليه. فلما أفاق سأله: من كتبت؟ قال: عمر.. . كتبها وهو يعلم أنه لا يعدو بها نية الخليفة المحتضر، فإن أفاق أتم عهده كما أراد، وإن ذهب في تلك الغشية بطلت اللجاجة^(١) فيما أراد، وانسد باب الفتنة والخلاف.. .

قال أبو بكر وهو على سرير الموت مستريح إلى وفاء صاحبه. مطمئن إلى أمانة كاتبه: «بارك الله فيك، بأبي أنت وأمى، لو كتبت نفسك كنت لها أهلا».. .

(١) أي الخصومة.

وهذا هو أسلوب الصديق فيما يرتضيه لمجاملته وصدقته: كلمة حق توافق السامع ولا تخالف الحقيقة فى ضمير القائل . وما لا شك فيه أن أبا بكر كان يرى فى عثمان إنه أهل للخلافة، وإن رأى أن عمر أحق بها منه . .

ثم صارت الخلافة إلى عمر ولم يكن عنده قريب أو بعيد غير من يقربه عمل أو يبعده عمل، ولم تكن للناس عنده أقدار غير أقدارهم عند الله وعند رسول الله، وكان يستمع إلى كل ويعتمد على كل، ويستبقى كبار الصحابة جميعا عنده ليستعين برأيهم ويجنبهم غواية الدنيا إذا انطلقوا إليها، أو كما قال: إنه كان يخشى عليهم من الدنيا ويخشى على الدنيا منهم، فبقى منهم من بقى على رضى وموافقة، وبقى الكثيرون منهم على تبرم (١) وملل (٢)، فلم يرسل أحدا منهم فى البلاد إلا من أرسله فى ولاية أو جهاد، ولم يكن يطيل الولاية لأحد منهم وإن أحسن وأفضل، مخافة على الناس أن يفتنوا بإحسانه وأفضاله، إن لم يخف عليه أن يفتنه الناس . .

وكان عثمان ممن بقى معه ولازمه غير مكره ولا راغب فى الرحلة كما رغب فيها الذين ارتحلوا أو لم يرتحلوا ارتحاله قبل الإسلام . ولم يشتغلوا بالدي اشتغاله بعد الإسلام، فركن إليه عمر فى طلب المشورة . وعمل بمشورته فى إحصاء الناس والأعطية، وفى بدء السنة بشهر المحرم، وعمل بها فى خطته الكبرى، وهى خطة العزل (٣) بين الإمامة والقيادة إلى ميادين القتال . فإن إصابة الإمام قد تطمع العدو وقد تئس الصدق، وليست كذلك إصابة القائد الذى من ورائه إمام يوليه ويولى أنداده (٤) وأمثاله من بعده، وهى نصيحة من عثمان لعمر ما أدلها على سرائر المؤمنين فى ذلك العهد الأمين: ينصح الناصح ولا يتغنى بنصيحته غير وجه الله . ويتقبلها السامع وهو لا يتغنى بقبولها غير وجه الله .

(١) أى ضيق وضجر . (٢) ملل: سامة . (٣) العزل: أى الفصل . (٤) أى أقرانه .

شئ واحد من أشياء كثيرة يكشف لنا عن أصالة المشكلات والنقائص في عهد عثمان . .

فها هنا فترة من التربية السياسية مرت به ومر بها ولم تهيأ الخليفة قبله ولا بعده. فهي أطول من فترة التربية السياسية التي تهيأت لأبي بكر مع النبي، وأطول من الفترة التي تهيأت لعمر مع النبي والخليفة الأول، ثم هي أطول من الفترات التي تهيأت لعمر مع النبي والخليفة الأول. ثم هي أطول من الفترات التي تهيأت للخليفة الرابع على الذي جاء بعده، لأن علياً - رضى الله عنه - أسلم وهو صبي ومضت عليه سنوات قبل مشاركته في أعمال الرأى أو أعمال الفعل والإنجاز، وقد كان إسلام عثمان وهو في نحو الثلاثين، مشهود له بالحزم والبصر، ومتأهب^(١) من اللحظة الأولى للمشاركة في كل خطة يتعاون عليها أقرب المقربين من صاحب الدعوة، وبينه وبين صاحب الدعوة - عليه السلام - صهر ومودة وقرابة ليست بالبعيدة.

وفي هذه الفترة التي تمرس^(٢) فيها بشئون الدعوة وشئون الخلافة عرضت كل مشكلة. وارتسمت كل خطة في معاملة الصحابة وسائر المسلمين، وارتست كذلك كل خطة في معاملة المشركين والمنافقين من مسالمين أو محاربين ومن أناس على المواربة^(٣) بين السلم والقتال، واتضح على هذا النحو حدود الإمام وحدود الرعية، ومواضع الترخص والتشدد في جميع هذه الحدود على اختلاف أحوال اليسر والعسر أو أحوال التبسط والحرَج، وكان خليقاً به وهو مطلع على كل قدوة وكل سابقة أن يكون اطلاعه هذا عدة جامعة يستعد بها لولاية الخلافة وتدبير الولايات من قبلها، وصراطاً يستقيم عليه فلا يعوزه^(٤) الرأى الواضح ولا التصرف العاجل في أمر من الأمور . .

وهذه هي المشكلة الكبرى . .

(١) أى مستعد .

(٢) تمرس بالشئ، وامترس: احتك به .

(٣) المواربة: المداواة والمخاتلة .

(٤) الإعواز: الفقر والاحتياج .

بل هذه هي مشكلة المشاكل في عهد عثمان من قبل ابتدائه إلى ما بعد نهايته . .

المشكلة الكبرى كما سوف تترأى لنا أنه لم يعمل في خلافته عملاق على غير سابقة تشبهه في كل شيء إلا في ظروفه وملابساته، فقد تغيرت كل الظروف والملابسات وهي هي بيت القصيد في كل استعداد لها بالقدوة والسابقة .

لقد كانت له سابقة في كل شأن من شئونه حتى في شئون زواجه ومصاهرته، وحتى في شئون تمييزه وتأليفه لذويه ولأعدائه، ولكن مع هذا الفارق الواحد الذي هو في الحقيقة جامع لكل فارق يخطر على البال، وهو فارق الظروف والملابسات .

كانت تربيته السياسية عدة له وأي عدة، وكانت مع هذا هي مشكلة المشكلات بين الاستعداد بها والتصرف فيها. وفاقا لما اختلف من ظروفها وملابساتها . .

عدة ولا عدة . . وهذه هي إحدى النقائص الكبرى التي تأصلت في عهد هذا الخليفة الشهيد . .

ونقيضة أخرى من نقائص عهده تعود إلى ميزته العظمى في إسلامه قبل عامة قومه . .

فهذه المزية العظمى، ما معناها إذا نحن عبرنا عنها بعبارة أخرى لا تخرج عنها في لبابها^(١) وقشورها؟

معناها القريب البسيط أن قومه تأخروا في الإسلام، وأنه كان مسلما من صفوة المسلمين، إذ كان قومه عامة على للد^(٢) الكفر وإصرار العداوة بينهم وبين النبي وصحبه الأبرار، وكان منهم من يعودن به وهم كافرون أو مرتدون

(١) أي جوهرها ومظهرها، واللب خالص كل شيء. (٢) اللدد: شدة الخصومة.

فيبدو ذلك نكيرا منفردا بين جلة الصحابة، لأنه كان وحده منفردا بالمزية التي لم ينفردوا بها مثله، وهى سبقه إلى الإسلام بين أسرة مصررة على المكابرة والعداء . .

ولقد كان العربى يلوذ بالعربى وهما فى المعسكرين المتناجزين^(١)، وكان عثمان مسلما يوم أوفده النبى إلى مكة وتلقاه أهلها بالأذى فتصدى لنصرتة بعض أبناء عمومته المشركين، ومضى ذلك فى حينه ولم يلتفت إليه ملتفت فى ذلك الحين، لأنه لم يكن بدعا من عادات القوم قبل الإسلام ولا بعده، وكان مشركو مكة يهابون المساس بصاحب الدعوة نفسه لعلمهم أن عشيرته تغضب له إذا جد الجدد، وأصابه المكروه فى سبيل الدين .

فلما انتهى أمر الشرك، وانتهى عرفه وعاداته، وبقيت مفاخر الإسلام وسوابقه أصبحت المزية العظمى نقيصة^(٢) من جانبها الآخر لم تكن مزية على الاطلاق .

يحضرنا فى هذا الصدد مثل يستوحيه الذهن قسرا^(٣) فى موقعه من ههد السيرة، وهو مثل الرؤيا التى فسرها المنجمون للملك تفسيرا قضى عليهم بالعقاب، ثم فسرها له غيرهم تفسيرا أغدق^(٤) عليهم النعمة والثواب، ولا فرق بين التفسيرين فى الدملول . .

قال له المنجمون أولا: إن الرؤيا مشئومة لأنهم تريهم أعزاه يهلكون واحدا بعد واحد ثم لا يلبث الملك أن يهلك على آثارهم .

ثم قال له المنجمون آخرا: إنها لرؤيا سعيدة تبشره بالعمر الطويل، وإنه لأطول عمرا من قومه أجمعين .

والتفسيران واحد فى المدلول، ولكن الأول يسخط ويسوء والثانى يرضى ويسر، ولا فارق بينهما فى غير التعبير .

(١) المناجزة والتناجز: بمعنى المقاتلة . (٢) نقيصة: أى عيب .

(٣) أى كرها أو قهرا . (٤) أى أكثر .

وعثمان - رضوان الله عليه - كان أسبق قومه إلى الإسلام فهذه منزيته العظمى . .

وكان كل أهله على الشرك ما عداه، وهنا تتغير الصفحة في النظر بعد ذهاب الشرك وأهله، وما بدا في الصفحة الأولى إلا الذي بدا في للصفحة التالية: قريب من قريب.

ليس من المؤلف في أيام عثمان أن يكون الزواج مسألة من مسائل المجتمع، وإنما كانت شئون الزواج تجرى على وتيرة^(١) واحدة بحكم العادة كأنها من شئون الزوج والزوجة التي لا تعنى^(٢) أحدا غيرهما، ولكن زواج عثمان لم يجز على هذه التورية سواء قبل الخلافة أو بعدها. فكان زواجه على التعاقب من بتين للنبي - عليه السلام - تاريخا في علاقات الزواج يكفى من ندرته أنه عرف به في كنيته على قول من أشهر الأقوال.

ولم يختلف بعد وفاة السيدة أم كلثوم عن سنة أمثاله في الزواج من عقيلات البيوت على الأغلب إلى أن توفي عن زوجاته الثلاث: رملة وقاختة ونائلة، إلا أن زواجه من نائلة بنت الفرافصة كان من قبيل الزواج النكح يقال فيه: إنه مسألة من مسائل المجتمع في حينه، فقد كان زواج الصحابة من غير المسلمات خارج الحجاز أحد الطوارئ التي جددت في المجتمع الإسلامي بعد فتوح العراق والشام ومصر، وكان لها أثرها البعيد في تطور البيت العربي واختلاف أنماط^(٣) المعيشة بين ذوى البيوتات من جلة الصحابة. وبعضها مما دخل على المعيشة العربية بعادات للأمم الغربية لم يتعودها العرب قبل مخالطتهم تلك الأمم مخالطة الصهر والمعاشرة البيئية.

وتتعدد الروايات في الباعث إلى خطبة عثمان لنائلة بنت الفرافصة كما هو الغالب في أخبار العصر كله. وأشهرها: أنه سمع بزواج سعيد بن العاص

(١) وتيرة: طريقة. (٢) أى تخص وتهم. (٣) أنماط: طرق وأنواع.

والى الكوفة من أختها هند، وتناقل ذوو قرباه الأحاديث عن كياستها^(١) وجمالها وحسن قيامها على أمور بيتها، فكتب إلى سعيد يخطب أخيها ولا يعرفها، وكان ضب بن الفرافصة قد أسلم، فأمره أبوه أن يزوجه أختها نائلة، وكانت أديبة ذكية تنظم الشعر وتحسن القول، ولها في زواجها من عثمان أبيات مما تغنى به ابن عائشة في بعض ألحانه، ومنها قولها تخاطب أخاها:

ألست ترى يا ضب بالله أننى

مصاحبة نحو المدينة أركبا

إذا قطعوا حزنا^(٢) تخب^(٣) ركابهم

كما حركت ريح يراعا^(٤) منقبا^(٥)

لقد كان فى فتیان حصن بن ضمضم

لك الويل ما يغنى الخباء المطنبا^(٦)

ثم قولها تخاطب نفسها:

قضى الله حقا أن تموتى غريبة

بيثرب لا تلقين أما ولا أبا

وغادرت قومها فى بادية الشام وحواضرها على كره منها إلى مسكنها الغريب، وسألها عثمان حين رآها: «لعلك تكرهين ما ترين من شيبى؟» قالت: «والله يا أمي المؤمنين إنى من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكهول». قال عثمان: «أنا قد جزت^(٧) الكهول، وأنا شيخ، ولن تجدى عندنا إلا خيرا».

(١) أى عقلها. (٢) الحزن: خلاف السهل. (٣) الخبب: ضرب من العدو.

(٤) اليراع: ذباب يطير بالليل كأنه نار، وشيء كالبعوض يغطى الوجه.

(٥) يقال نقبوا فى البلاد: أى ساروا فيها طلبا للمهرب.

(٦) أى المشدود بالحبال والأوتاد. (٧) أى تجاوزت.

وعلى هذه النقرة^(١) بعد هذه الغربة توثقت المحبة بين الزوجين حتى كرهت الزوجة الفتية بعد مقتل عثمان أن تتزوج من أحد بعده كائنا ما كان قدره ونسبه، وتكاثر خطابها فأحبت أن تصرفهم عنها وتصرف نفسها عنهم، فعمدت إلى حجر فهتمت به ثناياها، وردت معاوية بن أبي سفيان حين خطبها قائلة لرسول: «ماذا يرجوه من امرأة جذماء؟».

ونائلة هي التي كتبت إلى معاوية تصف مقتل زوجها، وقالت من خطابها الذي تواترت نسبته إليها: «من نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد فإنى أدعوكم إلى الله الذى أنعم عليكم وعلمكم الإسلام وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر ونصركم على العدو وأسبغ^(٢) عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم، فإنه قال: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفتى^(٣)» إلى أمر الله^(٤)» وإن أمير المؤمنين بغى عليه، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية لحق على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره، فكيف وقد علمتم قدمه فى الإسلام، وحسن بلائه، وأنه أجاب داعى الله وصدق كتابه واتبع رسوله، والله أعلم به إذ انتخبه^(٥) فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة».

ثم استطردت تقص خبر مقتله، وتتهم المقصرين عن نجاته. . فما كان صوابها بأدل على الولسه والحزن من خطتها فيما اتهمت، ومن تخبطها فيما زعمت، فإن خطبا^(٦) أهون من خطبها الذى شهدته بعيني رأسها ليذهل الحزين عن سداد رأيه، كما قال حكيم المعرفة فيما دون ذلك:

(١) النقرة: مراجعة فى الكلام. (٢) أسبغ: وسع وأتم. (٣) تفتى: ترجع.

(٤) الآية ٩ من سورة الحجرات.

(٥) انتخبه: أى اختاره. (٦) الخطب: المصيبة.

ربما أذهل الزين جوى^(١) الحزن

إلى غير لائق بالسداد

مثلما فاتت الصلاة سليمان

فأنحى على رقاب الجياد

وقد كان لها عند عثمان مثل هذا الحب وهذه الخطوة، بل كان له من الثقة بنصحها ما لم يكن له في مروان بن الحكم أقرب المقربين.. وكأنا يتلاحيان^(٢) كثيرا في محضره، وغيرها مرة أباه «الذى لا يحسن الوضوء» فقالت له تعرض بأبيه - وهو عم عثمان - «أما والله لولا أنه عمه وأنه يناله غمه لأخبرتكم عنه ما لم أكن أكذب عليه». . . وغضب عثمان فتوعد مروان لئن تعرض لها ليسودن وجهه. ثم قال له: «والله لهى أنصح لى منك».

إن خلق الرجل لا يقاس بمقياس أصدق من المرأة وأسبر^(٣) منها لأغوار طبعه، وقد يعز على هذا المقياس - مقياس المرأة - أن يسبر لنا أغوار عقله وأعماق بديهته، ولكنه لا يعز عليه أن يفرق بين الرجل الذى يحب ويطاع ويهاب، والرجل الذى تنزل به الألفة منزلة الوهن والعجز فى نظر من يالفونه قبل من يعرفونه على البعد أو لا يعرفون منه إلا القليل..

وهذا مقياس صادق من هذا الزواج الغريب أو الطارئ على المجتمع الإسلامى بعد فتوح العراق والشام وسائر الفتوح الآسيوية والأفريقية، وهو مقياس قيس به رجال من النابهين على نحو واحد فلم يكن بينهم من هو أرجح فيه من عثمان، ولا سيما مقياس الشخصية الغالبة التى تؤثر فيمن يعاشرها، وتصبغه بصبغتها، كما تأثرت السيدة نائلة بإيمان عثمان وتقواه وكرم نفسه فنسيت نفرتها واختلاف عقيدتها وبيئتها وتحنفت^(٤) على سنة^(٥) زوجها كما قال من وصفوها فى حياته وبعد مقتله.

(١) جوى: أى حرفة. (٢) يتلاحيان: يتشامان، أو يتازعان، أو يتلاومان.

(٣) السبر: الاختبار. (٤) تحنفت: أى استقامت. (٥) أى طريقته.

وفى ذلك العصر نفسه تزوج أناس من ولاية الدولة العربية بالعقائل (١) والجوارى فى الحاضرة والبادية، فكان منهم من تعود عاداتهن من الشراب على الطعام، وسوغه (٢) لنفسه باختلاف المختلفين فى الخمر وأنواعها، وكان أمر هؤلاء ومن شاكلهم يرفع إلى الفاروق قبل خلافة عثمان فيحسمه على دأبه (٣) بتأديب من عصى، والتنكيل بمن أصر على استباحة الشراب المحظور.

ومن لم يبلغه من ضعفه أن ينقاد هذا الانقياد لم يبلغ من شخصيته الغالبة على ذوى جواره وعشرته أن يصبغهم بصبغته ويحولهم إلى معيشة كمعيشته، وهذه ميسون بنت بحدل الكلبية من قبيلة نائلة بنت الفرافصة قد تزوجت بمعاوية، وداره إلى جانب دارها، ومقامه فى دمشق أقرب إلى باديتها، فلم تلبث أن سئمت مقامها، وعافت (٤) القصر الذى تسكنه زوجة لأمير المؤمنين وأما للأمير من بعده، ونظمت أبياتها التى جرت مجرى الأمثال على لسان كل زاهد فى مقامه، حنيناً إلى مآلف عيشه الأولى، وإن كانت دون ذلك المقام فى الرغد والنعيم:

قالت ميسون تذكر القصر والبادية:

لبيت تخفق الأرواح فيه

أحب إلى من قصر منيف

وليس عباءة وتقر عيني

أحب إلى من لبس الشفوف (٥)

وقالت تشير إلى زوجها:

(١) جمع عقيلة، والعقيلة: كريمة الحى. (٢) سوغه: أجازه. (٣) أى عادته.

(٤) أى ملت وكرحت.

(٥) الشفوف: الثوب الرفيق الذى يظهر ما تحته لرقته.

وخرق^(١) من بنى عمى حيف

أحب إلى من عالج^(٢) عليف^(٣)

فما أبغى سوى وطنى بديلا

فحسبى ذاك من وطن شريف

وذلك مع الفارق البعيد بين قصور الشام وسيوت الحجاز وبين سن معاوية وسن عثمان، وبين ما ترجوه زوجة الخليفة بعد موته وما ترجوه زوجة معاوية وأم يزيد وأم شقيقته «أمة رب المشارق» وسيدة القصر تكاد أن تنفرد فيه، وأن تغدو وتروح بين الحاضرة والبادية حين تشاء.

هذه لمحة من ملامح «الشخصية العثمانية» لا تهمل في مكانها من سيرته الخاصة، ولعلها أهدي للمؤرخ من شيم^(٤) كثيرة توضح له خلائقه التي يؤثر بها فيمن حوله، ولا شك أنها تزداد وضوحا إذا اتضحت معها ملامح الشخصية التي تأثرت بهذا الأثر، وهى السيدة نائلة التي جاءته نافرة تنعى غربتها وزواجها من غير بنى عمومته، ولم تلبث أن تحنفت وأخلصت لبعلمها فى وفاتها واعتقاده.

فهذه شخصية قوية من بيئة عريقة فى القوة والاعتزاز بالعرف والقوة وقومها بنو كلب أحد القبائل التى هجرت موطنها قديما فى الجزيرة العربية وحافظت على أرومتها^(٥) وعصبيتها وفصاحتها، فكانت إلى ما بعد الإسلام بعدة قرون مرجعا لمن يتقصى أساليب الفصحى، أو يريد أن ينشئ أبناءه على خشونة البادية وصحتها، ومهما نصعد مع أصولها فى القدم نجد فى أخبارها - بل فى أسمائها - لوان من ألوان هذه العصبية وهذه الخشونة وهذه العراقة البدوية التى لا يسهل على أبنائها وبناتها أن يتخلقوا بخلق غيرها..

(١) الخرق: الفتى الحسن الكريم الخليفة. (٢) العالج: الرجل من كفار العجم.

(٣) أى معلوف. (٤) الشيمة: الخلق. (٥) أرومتها: أصلها.

وتنسب هذه القبيلة إلى وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف ابن قضاعة، ويقول النسابون: «إن وبرة ولد له كلب وأسد وغمر وذئب وثعلب وفهد وضبع ودب وسيد وسرحان» ثم يزيدون على ذلك بعد الإسلام: «إن من أشرف كلب الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة، وهو الذى تزوج عثمان بن عفان ابنته نائلة بنت الفرافصة، ومنهم زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة، ومن أسلافهم فى الإسلام دحية بن خليفة الكلبي وهو الذى كان جبريل - عليه السلام - ينزل فى صورته، ومنهم حسان بن مالك ابن جذيمة..».

ويؤخذ من بعض أخبار الكنيسة الشرقية أن رؤساءهم دانوا بالمسيحية تلبية لدعوة الرسل الأولين فى بادية الشام قبل أن تدين بها الدولة البيزنطية، خلافا لما قد يظن من أنهم دانوا بها مع الدولة القائمة فى بلاد الروم..

وأيا كان مقطع لقول فى ذلك فلا مرأى فى قوة هذه القبيلة وعراقتها واعتزازها بأصولها واعتدادها بأنفتها^(١) وخشونتها كأنها ضرب من الإيمان أو أصرة من أواصر الأنساب، وقد عجزت قصور الملك فى دمشق أن تروض أم يزيد على البقاء مع بعلها فى القصر المنيف، فلم يسمع معاوية إلا أن يرسلها وابنها إلى باديتها عسى أن يستفيد من تلك النشأة منعة^(٢) فى الخلق تواتيه يوم ينهض بأعباء الدولة التى أعدها له من صباه.

فإذا كانت خلائق عثمان هى التى حبيت إلى زوجته من تلك العشيرة أن تفارق النشأة التى عزت مفارقتها على أترابها^(٣) فلن يرد على الخاطر أنها خلائق رجل إمعة^(٤)، أو رجل هزيل يذهب به من يذهب ويجيء به من يجيء، ولا بد لترده وحيرته حين يقع منه التردد والحيرة أن يتاب بهما إلى

(١) أنفتها: أى كبرياتها. (٢) منعة: أى قوة.

(٣) أترابها: لدااتها.

(٤) الإمع والإمعة: الرجل الذى لا يثبت على شىء ويتابع كل أحد على رأيه.

باعث بعمل عمله فى طبائع الأقوياء وغير المستضعفين ولا ينحصر عمله فى النفوس التى برئت من القوة وخلصت للضعف والهزال .

وقد ولدت له نائلة بنته مريم، فكان مما يخطر على البال أن هذ التسمية من إحياء أمها، ومن بقايا حنينها إلى عقيدتها الأولى، ولكن اسم مريم كان من الأسماء المحببة إلى عثمان، قد سمي به بنته من أم عمرو بنت جندب، وهو أشبه أن يكون تحية للزوجة المخلصة من أن يكون متابعة لها فيما لا تعاب المتابعة فيه .

تزوج عثمان على التعاقب تسعا من النساء، ومات عن ثلاث منهن هن: نائلة وفاخته ورملة، إذا صح أنه طلق أم البنين وهو محصور .

وقد ولد له تسعة من الذكور وسبع من الإناث، ولم يولد له من بنتى رسول الله رقية وأم كلثوم غير عبد الله ابنه من رقية، عاش إلى السادسة ثم نقر عينه ديك فورم وجهه ومات، وسائر أبنائه من زوجاته الأخريات لم يؤثر عنهم أمر ذو خطر فى التاريخ، وهى حالة من حالات السلالة الأموية لا نجزم بتعليلها على وجه واضح . فهم على خلاف بنى هاشم الذين بقيت فيهم بقايا النجابة^(١) والعزيمة على استمرار القتل فى أصولهم وفروعهم، وإنما كان بنو أمية فى المشرق والمغرب يعقبون كأنما يأتى العقب منهم على قدر الضرورة، مع أنهم قد اتخذوا الجوارى إلى جانب زوجاتهم، وتزوجوا من قريباتهم وغير قريباتهم، فإذا تسلسل النسب منهم جيلا أو جيلين لم يمحى على سؤال فى الجيل الثالث . أو يرزقون الولد ولا يرزقون فيه النجابة والنبوغ، وربما كان للنسب الدخيل فى أصولهم الجاهلية أثر فى هذه الحالة المتلاحقة، وأقرب من ذلك إلى التعليل المقبول إن أولئك الأصول فى الجاهلية لم يتصونوا فى المخادنة^(٢) والمعاشرة كما شاع عن بعضهم فأصابهم من الآفات الجنسية ما

(١) النجابة: الكرم . (٢) الخدن: الصاحب .

كمن في أعقابهم وتداركوه بالتبني تارة والاستلحاق تارة والتماسك بين ذوى القربى حيث لا موضع للتبى والاستلحاق . .

ونحن نوميء^(١) إلى هذه الملاحظة بسبيل الكلام على ذرية عثمان، لأنها ملاحظته شوهدت في تاريخ الأصول الأموية وشوهدت في نسله وعشيرته، وشوهدت في أعمال خلافته، فلها محل فيما خص أو عم من سيرته وتاريخه . .

٢ - شئون المجتمع:

منذ أسلم عثمان إلى أن تولى الخلافة تغير المجتمع العربى فى نطاق واسع، وأصبحت الصبغة الإسلامية نوعا من الصبغة العالمية يكاد أن يقرب بين أساليب المعيشة فى جميع أمم الحضارة الشرقية والغربية . .

أسلم عثمان والدعوة الإسلامية محصورة فى آحاد معدودين يلتمسون النجاة بعقائدهم وأنفسهم وذويهم من مجتمع إلى مجتمع ومن بلد إلى بلد. وصاحب الإسلام فى جهاده وفتوحه حتى عم الجزيرة العربية قبيل وفاة النبى - عليه السلام -، وأصبح بذلك دينا عربيا يجمع بين قبائل العرب على اختلاف الأنساب والطبقات . .

ثم صاحب الإسلام فى جهاده وفتوحه أيام حروب الردة وفتوح العراق وما جاوره من أرض فارس والروم، ثم صاحبه فى جهاده وفتوحه حتى أوشكت هذه الفتوح أن تحيط بالعالم المعمور يوم تسلم زمامه من سلفه العظيم عمر بن الخطاب . .

ولم تمض سنوات من خلافة عثمان حتى أحاط العالم الإسلامى بالعالم المعمور كله إلا ما كان منه فى أقصى المشرق أو أقصى المغرب، فأصبحت الصبغة الإسلامية كما أسلفنا، صبغة عالمية تشمل العربى والفارسى والرومى والمصرى والبربرى، وتسلكهم كلهم فى دولة واحدة لأول مرة فى التاريخ . .

(١) توميء: تشير.

وليس الذى طرأ على المجتمع العربى خاصة أنه عرف الترف ولم يكن يعرفه، أو عرف الثروة وكان محروما منها، فإن الترف والوفر قديمان فى الجزيرة العربية. وزيادة المقدار لا تحسب من التغير الجوهرى فى المجتمع إن لم تكن مصحوبة بالتغير فى نظرة الإنسان إلى الحياة، وهذا الذى غير المجتمع العربى. وغير المجتمع الإسلامى، بعد اتساعه وامتداده إلى أقصى مداه فى خلافة عثمان.

إن الغنى المترف من عرب الجاهلية لم يكن يخجل من ترفه. ولم يكن يحسب أنه يختلس به شيئاً ليس من حقه. ويستمتع بشيء لا ينبغى لمروءته بل كان يبذخ^(١) فى ترفه ويفاخر نظراءه ببذخه، ومن لم يدرك من الترف والبذخ حظاً كحظه فهو متطلع له، حاسد عليه، ناظراً إليه كما ينظر إلى أمنية الحياة، إن فاتته فقد فاتته من حياته خير ما يتمناه..

تغير هذا بعد الإسلام كل التغير، وأصبح الترف رذيلة مزدرة^(٢) كائناً ما كان نصيب المترف من الجاه والثراء، وأصبح الثراء نعمة دون النعمة الكبرى التى يتطلع إليها المسلم فى حياته الجديدة، فهو وسيلة دون غاية ومتاع فى حاجة إلى تسويغ، ثم لا مسوغ للسرف^(٣) فيه بأية حال.

وعلى هذا كبر مقدار الثروة التى ينعم بها أصحابها بعد أن تغير النظر إلى كثيرها وقليلها ومسوغاتها ومحظوراتها، فربما بلغت ثروة الرجل الواحد فى خلافة عثمان ما يعدل ثروة السادة المترفين جميعاً على آخر عهد الجاهلية، وما يحسب حتى فى زماننا هذا غنى مفرطاً عند الأغنياء.

قيل فى مصادر متعددة: إن عبد الرحمن بن عوف خلف^(٤) ذهباً كان يقطع بالفؤوس حتى تمجل^(٥) أيدي الرجال، وترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة

(١) البذخ: الكبر. (٢) مزدرة: أى محتقرة. (٣) أى الإسراف.

(٤) خلف: أى تركه ومات عنه.

(٥) المجلة: قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل.

ومائة فرس، وقسم ميراثه على ستة عشر سهما فبلغ السهم ثمانين ألف درهم، وكان يزرع بالجرف^(١) على عشرين ناضحا^(٢) ويتجر فيكسب من التجارة مئاة الألف.

وكان كلما اجتمع له من الربح مدخر كثير فرقه على الغزاة، وتصدق به على الفقراء. قال ابن عباس: «مرض عبد الرحمن بن عوف فأوصى بثلث ماله فصح فتصدق به، ثم قال: يا أصحاب رسول الله ﷺ، كل من كان من أهل بدر له على أربعمائة دينار، فقام عثمان وذهب مع الناس، فقيل له: يا أبا عمرا! ألسنت غنيا؟. قال: هذه وصلة من عبد الرحمن لا صدقة، وهو مال حلال، فتصدق عليهم في ذلك اليوم بمائة وخمسين ألف دينار».

وكان كلما اجتمع له عدد من العبيد اعتقهم ووصى لهم بما يكفيهم.

ولما مات الزبير بن العوام طلب أبناؤه ميراثه، فأبى عبد الله أن يقسم بينهم حتى ينادى بالموسم أربع سنين من كان له على الزبير دين قليلاً فلما انقضت أربع سنين قسم بينهم ما بقي من ماله خالصاً فإذا هو خمسون ألف ألف ومائتا ألف.

وكان طلحة يغل^(٣) بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار، وكان لا يدع أحداً من بنى تيم عائلاً^(٤) إلا كفاهه مؤونة عياله. ويزوج أيامهم ويقضى دين غارمهم. وأخرج صاحب الصفوة فيما أخرج من أخباره: أنه باع عثمان أرضاً بسبعمائة ألف حملها إليه، فلما جاء بها قال: إن رجلاً تبيت هذه عنده في بيته لا يدرى ما يطرقه

(١) الجرف: الخصب، وأرض جرفة مختلفة، والجرف: المكان الذي لا يأخذه السيل،

والجرف: ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض. (٢) الناضح: البعير يستقى عليه.

(٣) الغلة: الدخل من كراء دار، وأجر غلام، وفائدة أرض. (٤) عائلاً: فقيراً.

من أمر الله لغرير بالله . . فبات ورسله تختلف فى سكك المدينة حتى زسحر
وما عنده منها درهم .

وعن سعدى بنت عوف امرأته: أنها دخلت عليه يوما فرأته مغموما،
فسألته: ما شأنك؟ . . قال المال الذى عندى قد كثر وأكربنى، قالت: وما
عليك؟ . . أقسمه، فقسمه حتى ما بقى منه درهم، وقال خازنه: كان المال
الذى فرقه يومئذ أربعمئة ألف . .

ونحن لا نشك فى عظم هذه النزوات التى توافرت لهؤلاء النخبة من
أجلاء الصحابة شيئا فشيئا من أيام النبى ﷺ إلى ما بعد قيام الدولة الأموية،
ولا نجرى على عادة المحدثين الذين يتلقون أخبار العصور الماضية جملة واحدة
بالشك أو بالنفى من غير بينة، فإن الرفض المطلق كالتسليم المطلق كلاهما من
الآليات التى تحكم حكمها بغير تصرف ولا انتقاد، ومن الجائز أن الناقلين لم
يتحروا الدقة فى حساب الأرقام بالملايين والألوف والمئات كما نحسبها اليوم .
ولكن الذى نعتقده أن مقادير تلك الثروات أكبر وليست أقل مما توحى تلك
الأرقام، لأنها اجتمعت من أرباح التجارات فى جميع العصور، وهى التجارة
المبتدلة بين الشرق والغرب من طريق العراق والشام والجزيرة العربية
مجتمعات .

لقد كان الملأ من قريش أغنياء مفرطين فى الغنى أيام الجاهلية، وكان
موردهم كله من موصلات الحجاز بين اليمن والشام، ولم يكن لهم فوق
ذلك سلطان على بقعة وراء الحجاز، بل كان سلطانهم فى الحجاز نفسه عاجزا
عن تأمين قوافلهم بغير المساومة بينهم وبين قبائل الطريق . .

فلما استقر الأمن فى الجزيرة العربية وامتدت الفتوح إلى العراق والشام
وفلسطين ومصر، واطمأنت القوافل على هذه الطرق شرقا وغربا وإلى
الشمال والجنوب، واتسعت موصلات التجارة العالمية فى تلك البقاع، لم
يكن مورد فى العامل قط أعظم ولا أرباح من هذا المورد الذى تهبأ لبيوت

التجارة العريقة في قريش، ويكفى أن يسلم هذا المور سنة في سنتين أو ثلاث ليغنم منه التاجر الكبير ألوف الألوف، ويأخذ من ربح سنة ما يعوض وقف التجارة سنوات.

ومن المعلوم في العصور الحديثة أن شركة الهند الشرقية جمعت الملايين م أرباح تجارة دون هذه التجارة في السعة والضمان، إذ كانت تؤدي الضرائب والآتاوات^(١) في البحر والبر، ولا تملك خطوطا من المواصلات كتلك الخطوط التي تمهدت لأصحاب التجارات في الحجاز، أما أصحاب هذه التجارات فلم تكن عليهم ضريبة مفروضة غير الزكاة ونفقات الحراسة، وكانت أرباحهم معدنا خالصا أو عملة مقبولة في كل جهة من جهات العالم يومذاك، دون أن تتعرض لتقلب المضاربات في الأسواق بين أقصى المشرق في الهند وأقصى المغرب على الشواطئ الأطلسية.

فإذا قام على هذه التجارة العالمية عشرون بيتا أو ثلاثون بيتا من بيوت التجارة العريقة في مكة والمدينة فليس من المبالغة أن يقال عنها: أنها كانت تملك الملايين وتعمل الفؤوس في حطام^(٢) الذهب والفضة، فربما كانت المبالغة هنا إلى القلة لا إلى التزيد في التقدير.

ويهمنا أن نلتفت إلى مصدر الثروات من التجارة تصحيحا لوهم الواهمين أنها قد اجتمعت كلها من غنائم القتال، فإن عطاء المقاتلين لم يكن يتفاوت هذا التفاوت في الأنصبة بين أكبر عطاء وأصغر عطاء، ولم يكن في وسع طلحة ولا الزبير ولا عبد الرحمن بن عوف أن يجمعوا من أنفال^(٣) القتال ثروة تزيد على نصيب الأجناد بمثل ذلك الفارق الكبير.

وليس هذا كل ما يهم من تحقيق مصدر الثروة أو من الرجوع بأكثره إلى التجارة دون غنائم القتال، إذ المهم في الواقع أن المجتمع الذي تدور ثروته

(١) جمع آتاوة، والآتاوة: الخراج. (٢) الحطام: ما تكسر من اليبس. (٣) أنفال: مغنم.

على الأعمال التجارية غير المجتمع الذى تدور ثروته على أعطية الجند من غنائم القتال دون سواها، فهما مجتمعان متغايران فى آداب المعاملة، وفى موازين الأخلاق، وفى النظر إلى متع الحياة، وإذا التقيا معا فى أقل من عمر الرجل الواحد فلا قرار ولا تفاهم بين موازين التجارة وموازن الجهاد إلى حين . .

قال محمد بن سيرين: «كثر المال فى زمن عثمان فبيعت جارية بوزنها، وفرس بمائة ألف درهم، ونخلة بألف درهم».

وهذا الذى كان يقال عنه فى الزمن الماضى: إنه وفرة الخير ودرة الرزق . . وهذا الذى نقول عنه اليوم: إنه آفة «التضخم» فى النقد مع فارق بعيد بين أحوال عصرنا وأحوال العصور الماضية: ذلك هو الفارق بين عملة الورق وعملة الذهب والفضة، فإذا رخص الذهب والفضة كما حدث فى ذلك العصر لقد رخص المال فى جوهره ولم تكن ثممة^(١) غرابة فى كتل الذهب التى تقسمها فؤوس العبيد، ولا حيلة فى مثل تلك الحالة لمن يعيش على مورد محدود ولا يقتنى من الذهب والفضة ما يكفيه من الكفاف، وليست كذلك أزمة التضخم من عملة الورق وما جرى مجراها، إذ يقلل الشراء لقلة ما يشتري من المتاع المطلوب، وبعضها يطلب ولا يوجد عند طلبه فى الأسواق . .

هذه الأزمة بلغت غايتها فى خلافة عثمان، ولكنها بدأت بعد الهجرة إلى المدينة واستئناف مسير القوافل إلى رحلتى الصيف والشتاء بوضع سنوات. والإسلام لا يمنع التجارة ولا ينكر الثروة، ولكنه يمنع الترف، وينكر كنز الذهب والفضة، ويأمر بإفاق المال فى المنافع والمرافق كما جاء فى القرآن الكريم: «كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم»^(٢) ويتقى أشد التقية أن يترف أناس ويعدم أناس آخرون.

(١) ثمّة: أى هناك . (٢) من الآية ٧ من سورة الحشر.

ولم يصعب على المجتمع الإسلامى تدبير مشكلة الثروات الكبيرة فى السنوات الأولى من الدعوة، أو على الأصح أن الثروات الكبيرة لم تكن مشكلة من مشكلات المجتمع فى تلك السنوات، سواء من جانب الأغنياء أو جانب الفقراء. فإن أصحاب تلك الثروات كانوا يتعوزون منها، ويشفقون من فقرتها، ويسارعون إلى تفريقها على مستحقيها من الغزاة والمجاهدين وعلى المحرومين والمعوزين^(١)، وكان تخصيص الغزاة بالصلوات التى تأتيتهم من فيض^(٢) تلك الثروات تشريفا لهم يتنافسون عليه ولا يأنفون منه، بل كان منهم من يأبى أن تفوته هبة يراد بها أهل بدر أو غيرهم من أصحاب المغازى والسرايا، كأنه يرى فى ذلك إنكارا لصفته وكرامته وسابقته فى جهاده، وقد تقدم أن عثمان ذهب مع الناس إلى عبد الرحمن بن عوف لياخذ حصته من العطاء الذى نذر تفريقه على البدرين^(٣)، وموقف عثمان هنا خاصة-- ونحن بصدد ترجمته - يصور لنا شعور الغنى والفقير يومئذ بشرف العطاء الذى يخص به البدريون ومن حذا حذوهم فى غزوات الجهاد، فقد كان عثمان - رضى الله عنه - يفرق أضعاف ما أخذه من عبد الرحمن بن عوف، ولكنه أشفق أن يدخل البدريون فى حساب ولا يكون هو مثلهم من الداخلين فيه، وبخاصة حين غيره بعضهم أنه تخلف ع غزوة بدر، ودفع عنه هذا التعبير بما اعتذر به من إذن النبى له بالتخلف ومن حسابان سهمه فى الغنيمة. وهو غائب. فمثل هذا الشعور الذى يشمل الواصل والموصول من الغزاة والمجاهدين لا يجعل الثروة الكبيرة مشكلة يضيق بها المجتمع بين الأغنياء وفقرائه، إذ هى ودائع عند الأغنياء يحرسون على تفريقها، ولا يعرضون على اكتنازها واستبقائها، ثم هو لا حاجة لهم إلا اكتنازها واستبقائها، لأنهم كانوا يعافون الترف، ويعرضون عنه إعراضهم عن وصمات^(٤) الخلق التى لا تجمل بالرجل فى دينه ولا فى دنياه، وكان أحدهم يشكو الحكمة، ففلا يسمح

(١) المعوزين المحتاجين. (٢) أى زيادة. (٣) أى من حضروا غزوة بللور.

(٤) الوصم: العيب والعار.

لنفسه بلبس الحرير، وهو قادر عليه إلا أن يستأذن في ذلك رسول الله، فيأذن له على سبيل الفتيا، لا على سبيل التسلط من الرسول في لباس المسلم وطعامه، فما كان هذا التسلط مما يفرضه الرسول لنفسه، أو يفرضه المسلمون للرسول في غير ما يتولاه من التبليغ والتشريع، وقد كان الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ممن أذن لهم الرسول بلبس قميص من الحرير في بعض الغزوات ضرورة لا ترفا ولا سرفا، والمقام غير مقام الترف والسرف في شكة^(١) الجهاد.

وابتدأت الخلافة الأولى على عهد الصديق ومشكلة الثروات الكبيرة مكبوحة الجراح مملوكة الزمام، ثم أحس الخليفة الأول بزمامها يضطرب في يديه بعد اتساع التجارة وامتداد الفتوح، فاتخذ الحيلة لفتنتها واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معوتهم له في الرأي والعمل، وبين تجنيبهم الفتنة ومآزق^(٢) الولاية، وكان يتذر^(٣) من ترخص بعض الصحابة في أمور تؤذن بما بعدها، فقال لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت: «ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد من وجعي، إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه، ورأيت الدنيا قد أقبلت ولما تقبل وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد^(٤) الديباج^(٥) وحتى يآلم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذري - أي المنسوب إلى أذربيجان - كما يآلم أحدكم إذا نام على حسك السعدان».

ثم قال يعظه ويحذره: «والذي نفسى بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا، ثم أنتم غدا أول ضال بالناس يمينا وشمالا. لا تضيعوهم عن الطريق. يا هادي الطريق جرت!».

(١) الشكة: الحلة. (٢) جمع مازق، والمآزق: الضيق.

(٣) تذر: لام نفسه على فائت، أو تغضب، وتذر عليه: تنكر له وأوعده.

(٤) أي وسائد. (٥) الديبج: النقش، والمديج: المزين بالنقش.

ولم يكن عمر بحاجة إلى التحذير من عواقب انطلاق الصحابة في الأقطار، بل ربما كان يحذرها حيث لم يحذرها صاحبه، ولكن الصديق - رضوان الله عليه - لم ينس تحذيره في موقف الأمانة، فقال له وهو يجود بنفسه: «واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أجوافهم، وطمحت أبصارهم، وأحب كل امرئ منهم لنفسه وإن منهم لحيرة عند ذلة واحد منهم، فإياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله..».

كلمات لا تدرى كيف تحيط بما فيها من فهم لكل شيء فى إبانته (١) وقبل موقعه: فهم لطبائع الناس، وفهم للخطر كيف يأتى ومن أين يبدأ، زلة واحد تتبعها حيرة من الكثيرين، وماذا يصد ذلك الخطر من الزلة ومن الحيرة؟.. تصده القدوة بولى الأمر، فلن يزالوا خائفين منه ما خافنا الله.. وهكذا قد كان..

على أن المشكلة ظلت فى قبضة الزمام على عهد عمر، بين قوة الخليفة وتورع الأجراء من الصحابة، وشواغل الجهاد والفتح قبل استفحال نقضايه ونقائضه، وما برح الصحابة الكبار يتورعون من الشغلان بالثروة إلى ما بعد أيامه، فكان أقدرهم على التجارة وتشمير المال عبد الرحمن بن عوف. يخجل أن يراه أحد منصرفاً إلى شؤون متاجره ومزارعه، وحدث ابنه إبراهيم عنه فقال: «إن رجلاً زار المدينة ليلقى أصحاب رسول الله، فلقىهم جميعاً إلا عبد الرحمن بن عوف، وسأل عنه فقبل له: إنه فى أرضه بالجرف (٢)، فلما جاء ألفاه (٣) واضعاً رداءه ويده مسحاة يحول بها الماء، فاستحى عبد الرحمن، وأخذ رداءه وألقى المسحاة».

قال إبراهيم: «فسلم الرجل ثم قال: جئتك لأمر ثم رأيتاً لعجب

(١) إبانته: أى وقته. (٢) منطقة زراعية فى ناحية من المدينة. (٣) ألفاه: واجده.

منه.. هل جاءك إلا ما جاءنا وهل علمتم إلا ما علمنا؟.. قال عبد الرحمن: ما جاءنا إلا ما جاءكم وما علمنا إلا ما علمتم. فقال الرجل: فمالنا نزهد في الدنيا، وترغبون فيها، ونخف إلى الجهاد، وتتثاقلون عنه، وأنتم خيارنا وسلفنا وأصحاب نبينا ﷺ؟.. فعاد عبد الرحمن يقول: إنه لم يأتنا إلا ما جاءكم ولم نعلم إلا ما قد علمتم، ولكننا ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر».

وقد دعا الأمر بعد قيام الفاروق بالخلافة إلى مضاعفة الحيلة^(١) في كل تدبير لجأ إليه الصديق على اتفاق مع صاحبه لاتقاء الفتنة ومصاحبة التغيير الطارئ بالسياسة التي تلائمها، وجعل يشتد في حيطته كلما تباعدت المسافة بين المجتمع الإسلامي في أوائل عهد الدعوة وبين هذا المجتمع بعد افتتاح العراق وأقاليم فارس الغربية والشام ومصر إلى حدود أفريقية الشمالية والسودان..

فمن سياسته في ذلك: أنه ثابر^(٢) على استبقاء كبار الصحابة إلى جواره في المدينة، وكان منهم من يسأله الخروج للغزو والجهاد فيثنيه^(٣) عن ذلك ويلقى في روعه^(٤) معذرتة المشهورة: «إن له في غزوه مع رسول الله ما يكفيه ويبلغه.. وهو خير له من الغزو اليوم» ثم يقول له: «خير لك ألا ترى الدنيا ولا تراك».

وانتهج في محاسبة الولاة خطة حاسمة لا هوادة^(٥) فيها مع أحد ممن أحسن أو أساء، فراقبهم جميعا أشد مراقبة واتخذ موسم الحج موعدا لراجعتهم وسماع أخبار الرعية عنهم، ومنهم من كان يعزله ويستدعيه إليه لغير جريرة^(٦) يؤخذ بها إلا أنه لا يريد - كما قال غير مرة - أن يحمل فضل

(١) أي الحذر. (٢) المثابرة على الأمر: المواظبة عليه. (٣) أي يرده ويمنعه.

(٤) روعه: أي قلبه وعقله وخلده. (٥) الهوادة: اللين (٦) جريرة: ذنب أو جناية.

عقله على الناس، وأنه يخشى أن يفتتن الناس به إن لم يفتتن هو بالناس مع فتنة السلطان وفتنة النجاح.

وحظر على المقاتلين أن يملكوا الأرض والعقار، وكان له كما قلنا في عبقرية عمر. «نظام اقتصادى يوافق مصلحة الدولة فى عهده، فكان يحض (١) على التجارة، ويوصى القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك، ولكنه أبقى الأرض لأبنائها فى البلاد المفتوحة، ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند فى الجيش القائم، وإذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء، وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم، وأن يعتصم الجند الإسلامى من فتن النزاع على الأرض والعقار، ومن فتن الدعة (٢) والاشتغال بالثراء والحطام، وربما أغضى عن كثير فى سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها. فصفح عن أهل السواد - العراق - ليأمنوا البقاء فيه. . مع أنهم حثوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين فى أثناء القتال، ويلوح من كلامه فى أخريات أيامه أنه كان على نية النظر فى تصحيح النظام الاقتصادى وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذى وجدها عليه. فقال: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء» ولم يرد فى كلامه تفصيل لهذه النية. ولكن الذى نعلمه من آرائه فى هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينيه. فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدا بين المساواة فى الآداب النفسية والمساواة فى السن الاجتماعية، فكتب إلى أبى موسى الأشعري: بلغنى أنك تأذن للناس جما (٣) غفيرا. فإذا جاءك كتابى هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة. . ولكنه لما رأى الخدم وقوفا لا يأكلون مع سادتهم فى مكة غضب وقال لسادتهم مؤنبا: ما

(١) أى بحث. (٢) أى خفض العيش. (٣) أى لا تفرق بين شريفهم ووضعهم.

لقوم يستأثرون على خدامهم؟ ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة في جفان^(١) واحدة..

«فالمساواة في أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفي التفاصيل بالدرجات، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة، فكان يقول لهم في خطبه: «يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم!.. فقد وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين». وكان يوصي الفقراء والأغنياء معا أن يتعلموا المهنة، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء.. فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول^(٢) الغنى وتقسيمها في وجوه البر والصلاح.. على أن عمر يصح أن يسمى مؤسسا لديوان الوقف الخيري على الوجه الذي تعهده الآن. فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الفقراء الذين لا يجدون الطعام، وأصاب^(٣) قبل خلافته أرضا بخير، فاستشار النبي ﷺ فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها، فجعلها عمر لا تباع ولا توهب ولا تورث، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم، ولا جناح على من وليها أن يأكل بالعروف ويطعم صديقا فقيرا منها»..

وكان عمر يستقصى عادات المسلمين في معيشتهم حيث تفرقوا من بقاع الدولة الإسلامية، فسأل من عنده من أجلاء الصحابة: إن الناس قد دنوا من الريف فما ترون في حد الخمر؟ وكان ممن سألهم عبد الرحمن بن عوف فقال: نرى أن نجعله كأخف الحدود، فجلد فيه ثمانين.

ثم انتهت خلافة عمر والمجتمع الإسلامي مجتمعان!.. أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه، وأوشك عمر على قوته أن يحار في تدبيره، وقال الشعبي كما تقدم: أنه قضى وقد أوشكت قريش أن

(١) جمع جفنة، والجفنة: هي القصعة. (٢) أى ما يزيد عن الحاجة. (٣) أى تملكها.

تمهله لشدته ووقوفه لها بحيث وقف حائلا بينها وبين نزعاتها ومطامحها في دنياها الجديدة، بين ماضٍ ينصرم، وحاضر يتقلب ويكاد أن ينهزم، ولكن الثقة به لم تضعف مع طوابع المجتمع الجديد بل زادت هذه الطوابع المتقلبة تمكينا على تمكين، وجعلت من يخالفه يخجل من مخالفته، لمكان تلك الثقة القوية ولاستطاعة النفوس أن تغالب محن^(١) الحوادث ولا تستلم لغوايتها، ولعلنا لا نجد لهذه المغالبة مثالا يبرزها كما يبرزها مثل عبد الرحمن بن عوف الذي بلغ غاية النجاح في المجتمع الجديد وكان قطبا من أعظم الأقطاب في مجتمع الدعوة والخلافة الأولى، فإنه شهد بدرا والمشاهد كلها، وكتبت له حصة وافية من أنفال الغزوات وغنائمها، وفاضت ثروته من التجارة والزراعة حتى فرقتها مرة بعد مرة، وعاش إلى أيام عثمان وكان صاحب القول الفصل في اختياره للخلافة لأنه ارتضى أن يخلع نفسه منها ليكون له الرأي فيمن يختار من المرشحين لها، فهو بحق مثل نادر للمغالبة النفسية بين ما استقبل واستدبر من حياته على عهد النبي ﷺ وعهد عمر وعهد عثمان، وقد كان كما أخرج البخاري يقول كلما رأى وفرة^(٢) المال عنده: «.. خشينا أن تكون حسانتنا قد عجلت لنا».. وكان يصوم ثم يؤتى له بالطعام فيقول: «قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، فكفن في بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطيت رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة وهو خير مني، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا برده، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشينا أن تكون حسانتنا قد عجلت لنا»..

فهذه المغالبة لمحنة المجتمع الجديد، وتلك الثقة بالفاروق، وتلك القوة فيه، قد حفظت زمام الدولة في قبضة وليها، ولم تذهب بالمخالفة له إلى مدى أبعد مما سماه الشعبي بالملل وأحسن في وصفه، فلو لم تكن هنالك ثقة مكيئة لجاور الأمر الملل إلى السخط والتمرد، وألقى هنالك من يتمرد ليمضى

(١) جمع محنة، والمحنة: هي البلية. (٢) الوفرة: الكثرة.

مع الماضى ومن يتمرد ليقبل مع المستقبل ، ولكنها حالة لم تدم طويلا بعد
خلافة الفاروق . إذ كان فى الناس من يغضب باطلا ولا يخجل من غضبه
بالباطل ، وكان منهم من يغضب حقا وليس هو على يقين أن ولاة الأمر أحق
منه وأجدر بالفضل والطاعة ، وكان منهم من يحار بين الفريقين ولا يدري
كيف يهتدى فى حيرته إلى صواب .

الفصل الرابع

المبايعة

إذا لخصت سنة^(١) الصديق أو سنة الفاروق في تولية العهد بعدهما، كانت خلاصتها: أنها إبراء للذمة أمام الله، درءاً^(٢) للخلاف، وحرصاً على الوحدة الإسلامية..

وإبد من استحضار هذه الحقيقة لمنع كل شبهة، وتأويل كل قصد، ودفع كل فرية^(٣) عند تعليل الطريقة التي اختارها كلاهما لتحقيق هذه البغية اختلفاً فيها ظاهراً، ولا اختلاف بينهما باطنياً فيما قصداً إليه.

فلا تدبير هناك ولا احتيال لغاية يرميان إليها غير تلك المصلحة أو تلك الوحدة. ومن ظن أن الصديق قد اختار عمر ليقصى عن الخلافة غيره، أو ظن أن عمر قد اختار جماعة الشورى ليرجح الكفة في جانب واحد منهم على ساء، فهو ينكر عليهما الإسلام، ولا ينكر عليهما حسن النية أو حسن التدبير وحسب، فإن أحداً يؤمن بأنه محاسب على نيته وعمله إذ يودع الدنيا ويستقبل الآخرة، لن يحتال، ولن يدبر لهواه، وهو يعلم أنه يغضب الله بما يفعل، ولو كان أحدهما هوى في أحد لاختار أبو بكر من بنى تيم، واختار عمر من بنى عدى أو بنى الخطاب، وما كان ينبغي لهما الهوى وهما في سطة^(٤) الدنيا وجاء الولاية، فكيف ينبغي لهما وهما مقبلان على الموت مؤمنان بحساب ولا شك فيه؟

لم يكن هناك نظامان دستوريان كما وهم بعض المحدثين الذين أرادوا أن يعينوا بلغة الدساتير العصرية نظاماً لتولية العهد في سابقة الصديق أو سابقة الفاروق، وإنما هما نظام واحد يتبعه كلاهما في موضع صاحبه، فما نحسب أن أبا بكر كان مسمى أحداً بعينه لو كان في موضع عمر، وما نحسب أن

(١) سنة: أى طريقة. (٢) درءاً: أى دفعا. (٣) افترى الشيء اختلقه.

(٤) سطة: هنا بمعنى صولة.

عمر كان محجما^(١) عن التسمية لو كان فى موضع أبى بكر، وليس البحث عندهما، أى أولياء العهد أفضل وأحب إليهما؟ ولكنما البحث الذى يعنيهما ويشغلهم: أيهم أحب إلى المسلمين وأقمن^(٢) أن يجمعهم على بيعة واحدة وكلمة متفقة، ولا يعقل أن أحدا منهما كان يعلم فى طويته أن ثمة^(٣) وسيلة غير الوسيلة التى اختارها لتحقيق الوحدة المنشودة ثم يعدل عنها، ليأثم فى حق ربه وحق دينه وحق رسوله وحق المسلمين كافة، تبرعا منه بالإثم حيث لا حاجة ولا مصلحة ولا فرصة بعدها للندم والتوبة.

حضرت الوفاة أبى بكر، فسأل نفرا من نخبة الصحابة عن يتولى أمور المسلمين بعده، فذكروا عمر، وأشار بعضهم إلى شدته، فقال لهم: إنه كان يشتد لأنه يرانى رقيقا، فإذا ركل^(٤) إليه الأمر فلا خوف من شدته. وروى حمد بن سعد: أن جماعة من الصحابة دخلوا عليه لما عزم على استخلاف عمر، فقال له قائلون منهم: «ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟». فقال أبو بكر: «أجلسونى». ثم جلس فقال: «أبالله تخوفوننى؟.. خاب من تزود من أركم بظلم، أقول: إننى قد استخلفت عليهم خير أهللك.. أبلغوا عنى ما قلت لكم من وراءكم»..

ثم اضطجع وجاء عثمان بن عفان فجعل يملى عليه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلها فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنى استخلفت بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا، فإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيرا، فإن عدل فذاك الظن به وعلمى فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت ولا علم لى بالغيب، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

(١) محجما: أى ناكصا. (٢) أقمن: أى أجدر. (٣) أى هناك. (٤) وكل: أى أسند.

وكان يملئ وتدركه غشية^(١) فلما قال: «استخلفت بعدى» ولم يذكر اسما أتم عثمان وصيته باسم عمر بن الخطاب، ثم أفاق أبو بكر فسأله: ماذا كتبت؟ فأعاد عليه العبارة كما زادها، فدعا له وبارك عليه، وقال له: «هكذا الظن بك، لو كتبت اسمك لكنت لها أهلا».

والقوم في معرض المحاسبة لأنفسهم أمام الأمانة العظمى لا يصطنعون زخارف المجاملات التي يتلهى بها طلاب الظرف ورواد الأندية في زماننا هذا وقبل زماننا، فما كان عمر ليستنحي عن الأمانة وقد اختير لها وهو يعلم أنه أقدر عليها.. فإنه محاسب على إنكاره حقه كما يحاسب على إنكار حق غيره إذا اجتمعت له صفة الولاية دونه. فكان يتولى الخلافة وهو يقول: «لو علمت أن أحدا أقوى على هذا الأمر مني، لكان أن أقدم، فتضرب عنقي، أحب إلى من أن أليه»..

ثم حضرته الوفاة فلم يعهد في بادئ الأمر لأحد، ونقل إليه حديث الناس إذ يقولون: «إنه غير مستخلف، ولو كان له راعى إبل أو راعى غنم ثم ترك رعيته كان قد فرط في أمانته. فماذا يقول الله عز وجل إذا لقيه ولم يستخلف على عبادته؟» فأصابته كآبة ثم نكس^(٢) رأسه طويلا ثم رفعها وقال: «إن الله تعالى حافظ الدين، وأى ذلك افعل فقد سن لى. إن لم أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن استخلف فقد استخلف أبو بكر»..

وعاودوه في هذا الحديث فجعل يسأل كأنما يسأل نفسه: «من استخلف؟». وروى عمر بن ميمون الأودى أنه قال بعد ذلك: لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته وقلت لربى إن سألتى: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته وقلت لربى إن سألتى: سمعت نبيك قول: إن سالما شديد الحب لله تعالى».. فقال له المغيرة

(١) أى يغمى عليه. (٢) أى خفض.

ابن شعبة: «أدلك عليه، عبد الله بن عمر». فنهروه^(١) قائلا: «قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا. ويحك! كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب^(٢) لنا في أموركم، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي. إن كا خيرا فقد أصبنا منه، وإن كان شرا فقد صرف عنا. بحسب^(٣) آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمة محمد. أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى، فإن نجوت كفافا لا وزر ولا أجر إني لسعيد...».

ثم قال: «انظر، فإن استخلف فقد استخلف من هو خير منى، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى، ولن يضيع الله دينه»..

وراجع نفسه وروجع فى الاستخلاف مرة بعد مرة فقال: «ما أردت أن أحمّلها حيا وميتا، عليكم هؤلاء الرهط^(٤) الذين قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة، وهم: على، وعثمان، وعبد الرحمن، وسعد، والزبير، وطلحة. فليختارا منهم رجلا، فإذا ولوا منهم واليا فأحسنوا مؤازرته^(٥) وأعينوه».

ثم دعا بهم فحضرُوا إلا طلحة كان غائبا، فقال لهم: «إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض سول الله ﷺ وهو عنكم راض. وإنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكنى أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس».

ووضع رأسه وقد نزفه الدم، فتناجوا بينهم حتى ارتفعت أصواتهم، وقال عبد الله بن عمر: «سبحان الله! إن أمير المؤمنين لم يميت بعد!» فسمعه فانتبه، وقال: اعرضوا عن هذا، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهيب، ولا يأت اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منم، ويحضر عبد الله بن

(١) نهروه: زجره. (٢) أى لا حاجة. (٣) بحسبهم: يكفيهم.

(٤) أى الجماعة. (٥) أى مناصرته ومساندته.

عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم فى الأمر، فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة فامضوا» ..

والتفت سائلاً: «ومن لى بطلحة!» قال سعد بن أبى وقاص: «أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله تعالى».

وقال لأبى طلحة الأنصارى: «يا أبا طلحة، إن الله طالما أعز بكم الإسلام، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم»، وقال لصهيب: «صل بالناس ثلاثة أيام، وادخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ^(١) رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، وإن رضى ثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذي فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا البقيين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس» ..

على هذا الوجه أبرأ عمر ذمته من قضية الامتخلاف ..

وعلى هذا الوجه نرى عقل رجل من أولئك الرجال الأفذاذ يعمل فى تفصيلات هذه القضية التى واجهته بجميع عقدها ومخاطرها لأول مرة فى حياته، وهو يفارق تلك الحياة: يقلبها على جميع الوجوه، ويفرض لها جميع النتائج، ويترك أبوابها فيفتح منها ما ينبغى أن يفتح، ويغلق منها ما ينبغى أن يغلق، ويلاقى من جانب ما يخشاه من جانب، ويختار الرجال ثم يختار لخطط على كل احتمال من إحسان أو إساءة، ومن وفاق أو شقاق، ويفعل ذلك فى غمرات الموت^(٢) بين صرعات الألم من جراحه القاتلة، ويعالج به أمراً لم يعالج من قبل على هذا المثال أو على مثال غيره، وكأنما هو من خبراء الاختصاص فى دساتير الحكم درسها وتلقى دروسها من أساتذتها الذين سبقوه

(١) فاشدخ: أى اكسر. (٢) غمرات الموت: شدائده.

إلى تقريره وتدوين وقائعها ومواقفها، وجلس ليوازن ويقابل، ويوافق ويوافق، ومن حوله الأعوان، يلبون ما يطلب، ويستدركون ما يفوت، وينتهون في سعة من الوقت إلى قرارهم وهم وادعون^(١) آمنون أن يصيبهم مكروه من مغبة^(٢) ما قرروه.

ولو كان تفكيره لعذر يتكلم به، أو لحجة يسكن إليها، لقد كان حسبه أن يبرئ ذمته بالطمأنينة إلى الدين في حراسة الله، أو كان حسبه أن يبرئ ذمته بما جرى عليه الأمر في عهد رسول الله، ولكنه لا يلتمس عذرا يقال وحسب، أو حجة تقنع وكفى، بل يسأل نفسه ويحاسبها على اختلاف الأمور بين عهد وعهد وتباين^(٣) الأعذار من حال إلى حال، فلا يدع من جوانب القضية شبهة يوردها من يحاسبه إلا أوردها لنفسه، كأنما هو حامل الميزان..

فمن سأل عن معجزات العقائد في كواكب السماء، أو أطواد^(٤) الأرض فهذه معجزة المعجزات التي تأتي بها العقيدة في نفس الإنسان: تخرجه من جوف الصحراء كفوا لأعضل العضلات بخلقه، وكفوا لها بعقله، وكفوا لها بعمله، ونمطا من الشعور بالتبعات لا يجارى^(٥)، ونمطا من القدرة على النهوض بها يطول الزمن بأبناء الحضارات قبل أن يبلغوه وقبل أن يعرفوه..

ومن آيات^(٦) بعد النظر في سبر أغوار^(٧) الرجال، أنه جعل للترجيح بين أصحاب الشورى رجلين: هما عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن عوف، فأما عبد الله بن عمر، فهو الذي نحاه^(٨) عن المشاركة في الخلافة. وأعدده للترجيح بين المختلفين، وليس له من الأمر شيء، وأما عبد الرحمن ابن عوف فلم يلبث أن نحى نفسه ليقبل حكمه، فكان بحق أصلح المشاورين لترجيح إحدى الكفتين..

(١) الوديع والوداع: بمعنى الساكن. (٢) مغبة: عاقبة. (٣) تباين: اختلاف.

(٤) جمع طود، والطود: الجبل. (٥) لا يجارى: لا يبارى ولا يضارع. (٦) أى دلائل.

(٧) سبر أغوارهم: اختبار نفوسهم وطواياهم. (٨) نحاه: صرفه وأبعده.

ومن آيات بعد النظر فى الاختيار وسبر الأغوار أنه أقام أبا طلحة الأنصارى على رأس خمسين ممن يختارهم لقمع^(١) الفتنة فى مهدها إذا اختلف المشاورون، فكان أبو طلحة عند ظنه حزما وتقية. قال للقوم وقد تنازعوا الرأى: «لقد حسبتم تندافعونها ولا تتنافسونها». ثم أقسم لا يمهلتهم لحظة بعد الأيام الثلاثة، ثم هو صانع بهم ما أمر به أمير المؤمنين..

ومن آيات بعد النظر فى الاختيار، أن اختار صهيبا للصلاة بالناس، فهو الإمام الذى لا تخشى له دعوة من تقديمه للصلاة، ولا يأبى الناس أن يأتوا به وقد أمهم قبل ذلك..

ومن آيات بعد النظر فى الاختيار وسبر الأغوار أنه اختار طلحة مع الستة وهو غائب عن المدينة.. أو ما كان فى الخمسة المقيمين بالمدينة غنى وكفاية؟.. أو ما كان لطلحة بديل من سائر الصحابة المقيمين؟.. جواب ذلك عند التاريخ فى نهاية عهد عثمان، وعند التاريخ فى بداية عهد على، وعند عمر قبل ذلك باثنتى عشرة سنة.

وآية الآيات دستوره فى اختيار الستة دون سائر الصحابة من الأنصار والمهاجرين..

أتراه اختارهم جزافا كما شاء؟.. ذلك دستور لا يلزم الناس جميعا ولا حجة له عليهم فيه إذا سألوه عن فضل المختارين على غير المختارين؟..

أتراه اختارهم من قبائل قريش ليكون كل منهم نائبا عن قبيل منهم، أو متكلميا باسم بيت من بيوتات الرئاسة فيها؟.. تلك هى العصبية يحثها فى أسوأ أوان لإحيائها، حيث تراد الوحدة والغيرة على العقيدة، ولا تراد العصبية الجاهلية، أو لا يرد الاعتراف بها إذا تيقظت على غير إرادة.

أتراه اختارهم من البدرين وذوى السوابق فى الجهاد؟.. لقد كان من

(١) قمع الفتنة: قهرها وإخمادها.

هؤلاء عند وفاة عمر نفر غير قليل، لو جمعه كلهم لكثرنا، ولو فاضل بينهم لما وضحت لهم أسباب المفاضلة، ومنهم من هو ذو فضل وليس بذى رئاسة تتبع، ومنهم من ذوى الفضل والرئاسة من لو اجتمعوا لاختل ميزان الترجيح وبطل معنى الاختيار..

فلا بد من اختيار، ولا بد من دستور يثاب^(١) إليه فى الاختيار، وكان الدستور الذى ثاب إليه عمر حيث يعجل المرء عن الروية غاية فى الروية والدقة فى الموازنة بين جميع الوجوه.

كان دستوره أن أصحاب الشورى هم الذين ذكروا بأسمائهم فى خطبة النبى ﷺ بعد حجة الوداع، وهم الذين يتفق الناس على الاختيار منهم، أصحاب الشورى وأن تكون لهم حججهم عليه..

وعمر يعلم أن طلحة كان يطمح^(٢) إلى استخلافه بعد أبى بكر، وكلاهما من عشيرة واحدة وهى قبيلة تيم، فقال له أبو بكر: «أما والله لو وليتك لجعلت أنفك فى قفاك^(٣)»، ورفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها..

وما كانت تخفى على عمر فضيلة فى واحد من الستة ولا نقيصة^(٤)، وما كان يغمط^(٥) لهم فضلا ولا يغضى على نقص، وأولهم عبد الرحمن بن عوف الذى أقامه بينهم مقام الحكم الذى يرجح بين العدلين، فقال له: إن إيمانه يرجح بنصف إيمان الأمة، وقال عنه لابن عمر: نعم المرء.. ذكرت رجلا صالحا إلا أنه ضعيف، وهذا الأمر لا يصلح له إلا الشديد من غير عنف، اللين من غير ضعف، الجواد من غير سرف، المسك من غير بخل.. ورأيه فى الزبير أنه مؤمن الرضا كافر الغضب، وقد صارحه برأيه فيه

(١) يثاب: أى يرجع. (٢) أى يتطلع. (٣) كناية عن التعالى والتكبر.

(٤) نقيصة: عيب. (٥) أى يجحد.

فقال له: «لعلها لو أفضت^(١) إليك ظللت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير».

ورأيه في سعد أنه أهل لها.. فإن تولوه فهو أهل، وإلا فليستعن به الوالى، فإنى لم أعزله عن ضعف ولا خيانة، وكان يقول: «إذا روى سعد حديثا فلا تسألوا عنه غيره لصدقه وأمانته».

وكان يظن مع هذا أنه لا يليها «إلا أحد هذين الرجلين: على وعثمان، فإن ولى عثمان فرجل فيه لين، وإن ولى على ففيه دعاية^(٢) وأحرى به أن يحملهم على الحق».

قال لعثمان: «كأنى بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بنى معيط على رقاب الناس، وأترتهم بالفىء» وقال لعلى مثل ذلك عن بنى هاشم ولم يذكر الفىء، وإذا صح ما جاء فى إحدى الروايات^(٣) أنه قال لعثمان بعد مقالته الأولى: «فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحا» فإنها لمن نبوءاته التى جعلته من المحدثين^(٤)، أى من الذين يتحدث إليهم بلسان الغيب، كما قال عنه النبى ﷺ.

ولا خوف عليهم من الناس إذا اتفقوا كما قال لهم حين دعاهم للمشاورة وانتخاب واحد منهم لخلافة، فليس أسلم عاقبة ولا أصدق حجة من اتفاقهم على إسناد الخلافة إلى أحدهم. فإن اتفق أكثرهم فأبو طلحة مأمور بحسم الفتنة قبل أن تنجم^(٥) والقضاء على المخالفة قبل أن يبرح^(٦) مجلس الشورى، فإن لج^(٧) الخلاف مع هذا وبعد هذا فلا حيلة فيه..

وقد روى الثقات حديث النبى ﷺ حين غاد من حجة الوداع قبيل وفاته

(١) أى آلت إليك.

(٢) الدعاية: المزاح.

(٣) رواها الجاحظ وابن أبى الحديد مسندة إلى ابن عباس.

(٤) المحدثين: المهتمين.

(٥) تنجم: تظهر.

(٦) يبرح: يترك.

(٧) لج: اشتد.

فقال: «أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤنى»^(١) قط فاعرفوا له ذلك، يا أيها الناس إنى راض عن عمر وعلى وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزيبر بن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين، فاعرفوا لهم ذلك»..

فحسب عمر أن يرتضى للمشاورة فى أمر الخلافة من رضى النبى ﷺ عنهم قبيل وفاته، وحسبه مع هذا أن يكون هؤلاء النفر الكرام المرضى عنهم هم ملتقى الآراء بين خاصة المسلمين وعامتهم، فلا يسمون خليفة إلا كان واحدا من هؤلاء، ولا يحاول أحد فى ذلك العصر أو فى عصرنا هذا أن يزيد عليهم علما من أعلام الإسلام يومئذ إلا اعترضه مانع أو كان مستنده إلى سبب غير جامع، فقد كان العباس بن عبد المطلب حيا فى ذلك الحين فلم يدخل فى أصحاب الشورى، وقال ابن جرير الطبرى فى تعليل ذلك: «أنه - رأى عمرا - إنما جعلها فى أهل السبق من البدرين والعباس لم يكن مهاجرا ولا سابقا ولا بدريا»..

ولكن الواقع أن العباس لم يذكر فى خطبة الوداع، ولم يكن من المرشحين للخلافة مع وجود على، وهو نفسه قد تقدم لمبايعة على، ثم أشار عليه ألا يدخل فى جماعة الشورى، فليس فى استثنائه تعسف^(٢) من عمر، وإنما التعسف أن يختاره لسبب ولا يختار معه كل من يشاركونه فى هذا السبب، وذلك هو الاستثناء الذى لا يغنى شيئا ولا يطاع بسند شامل براء^(٣) من التحكم والجفاف..

ولقد علمنا فيما علمناه وألمنا به أننا من آراء المعقنين على خطة الصديق وخطة الفاروق، أن بعضهم ود لو كان الفاروق قد نهج على منهاج سلفه فى اختيار خلفه، وأنهم عابوا عليه أن يكل إلى الستة أن يتشاوروا فى انتخابواحد منهم، لأنهم تولوا هذه المهمة فداخل كلا منهم الأمل فى الخلافة

(١) أى لم يفعل ما يسئنى. (٢) تعسف: ظلم. (٣) أى برىء.

والإيمان بصلاحه لولايتهما، فانفتح بينهما باب التنافس وتطرت إليهم نوازع الشقاق في هذا الباب.

ومعاوية بن أبي سفيان كان على رأس القائلين بهذا الرأي، وهو نفسه حجة^(١) على نقيضه، لأنه قد اشترأب^(٢) إلى الخلافة، وتصدى للمبايعة بها وليس هو من الستة ولا من كان يطمع في إسنادها إليه بوصية من الفاروق لو اختار الفاروق أن يعهد بعهد خليفته يسميه باسمه، وقد نادى معاوية بولاية العهد لابنه يزيد، وببيع عليها طوعا أو كرها، فلم يحسم بذلك خلافا بين المسلمين عامة، ولا بين بنى أمية أو أبناء بيت أبي سفيان.

وما نحسب أن عمر كان يمين بترجيح واحد من الستة على الآخرين وإجماع المسلمين على مثل رأيه فيه، وإنه قادر على رد المخالفين له إلى الإجماع إن كان من الناس من يخالفه قبل المبايعة. وليس البحث في هذا المقام عن فضل العلم أو فضل البأس^(٣) والفروسية، فربما قل الخلاف على صاحب الفضل فيهما بين أصحاب الشورى ورؤساء المهاجرين الأنصار كافة، وإنما البحث فيمن يجمع الناس إلى حكمه وفضله، وهو بحث لازم لا غنى عن المشاورة يومئذ فيه، ولو استغنى عنه أحد لاستغنى عنه عمر، ولم يبال إن كان يحكم برأيه في ولاية العهد على يقين.

ولا ريب أنه حصر المرشحين بعده للخلافة، فأحسن حصرهم، ولم يدع واحدا منهم خارجا من زميرتهم^(٤)، فهم مرشحون لها عند أنفسهم وعند أنصارهم قبل أن يندبهم للمشاورة فيها، فإن صارت إلى واحد منهم باتفاقهم، كان هذا ألزم لهم، وأوجب لتخرجهم من الخروج على ولى الأمر باختيارهم، وكان أوجب لتخرجهم كذلك من الخروج على مشيئة عمر التي أملاها ورتب لها نتائجها.

(١) أى دليل. (٢) أى تطلع إليها وتمناها. (٣) البأس: الشدة فى الحرب.

(٤) زميرتهم: جماعتهم.

كان ولى الأمر فى ذلك المجتمع الوليد^(١) كفوًا لأمانة الخلافة إلى النفس الأخير من أنفاس حياته المباركة، فأوصى وصيته المحكمة التى نظر فيها نظرتة الشاملة، ولم يدع فيها بقية لنظرة ثانية، ولكن الوصايا مهما يبلغ من أحكامها وإلزامها لا تنفذ بغير منفذون يقدرون على تنفيذها، ويصدقون النية فيه، فلو لم يكن أصحاب الشورى وقائد الجند وإمام الصلاة فى الأيام الثلاثة أهلاً لأمانتهم، لما أغناهم حزم الخليفة الراحل شيئاً فى تلك المهمة العجلة التى يوشك أن يفسدها كل خطأ فى القيام عليها، وكل تأخير عن موعدها. وقد أدى الخليفة واجبه وبقى واجب المنفذين الذين ائتمنهم على الأمة بعد حياته، فمن حقهم على التاريخ أن يسجل لهم أداءهم لواجبهم، وتصريفهم لأمانتهم على أتم الوجوه الميسرة لهم فى تلك المهمة المحرجة... وفى زميرتهم قبل غيرها بعض محرجاتها، بل أعضل^(٢) محرجاتها.

تنافسوا بينهم ولا جرم. أقل من منصب الخلافة فى الدنيا والدين يتنافس عليه المتنافسون، ومن المروءة أن يستشرف^(٣) المرء إلى مقام الفاضل ويأبى لدينه ودنياه مقام المفضول، فإن لم يكن تنافسهم على مكانة عالية فهو تنافس يربأون^(٤) به عن مظنة التخلف والقصور..

ثم ألهم أحدهم أول حل للمشكل تتبعه لا محالة سائل الحلول: واحد ينزع نفسه منها باختياره وينوب عن سائرهم فى التوفيق بين المختلفين..

سبقهم إلى هذا الحل عبد الرحمن بن عوف، ولم يسبقهم إليه نزولا بقدره عن أقدارهم، بل نزولا به عن قدر الصديق والفاروق، فقد علم أن الرضى عن خليفة بعد هذين مطمع بعيد، ولم يشأ أن يتزل نفسه منزلاً لا يرتضى له ولا يرتضيه..

(١) أى الحديث التكوين. (٢) أى أصعب.

(٣) استشرف الشيء: رفع بصره إليه، وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس.

(٤) أى يرتفعون.

ولم يخطر له أن يخلع نفسه بادئ ذي بدء قبل أن يرى منهم من عساه يصنع مثل صنيعه، فإن كان منهم من يخلع نفسه على أن يختار غيره فقد ضاقت بينهم شقة الخلاف، وإن لم يكن فليُنظر بعد ذلك فيما يلي خطوته الأولى من خطوات..

قال: «أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليا أفضلكم؟» فلم يجبه حد. فقال: «أنا أنخلع منها»، ثم تقدم إلى الخطوة التالية فلم يخطئها ووصل منها إلى حصر الخلافة في واحد من اثنين: علي وعثمان..

لقى كلا منهما فأراه أنه يعلم حجته ودعواه. قال لعلي: تقول يا أبا الحسن إنى أحق من حضر بهذا الأمر لقربتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد في نفسك، ولكن رأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به؟» قال: «عثمان»..

ولقى عثمان فقال: «إنك تقول: شيخ من بنى عبد مناف، وصهر رسول الله وابن عمه ولي سابقة وفضل فأين يصرف هذا الأمر عنى؟.. لكن لو لم تحضر، فأى هؤلاء الرهط تراه أحق؟» فقال: «علي»!

وتختلف الروايات فيمن اختاره الزبير وسعد، ولكن الراجح منها أنهما ذكرا عثمان بشرط، ولم يقطعا برأى في إيثار^(١) علي عليه..

فلما انحصر الترجيح بين عثمان وعلي خرج يسأل من يلقاه من غير أصحاب الشورى فيذكر له بعضهم عثمان وبعضهم عليا، ويزيد المختارون لعثمان على المختارين لعلي وهو أمر لا غرابة فيه مع المعهود من طبائع الناس، وأنهم لا يجنحون^(٢) إلى العظمة النابغة^(٣) جنوحهم إلى الطيبة والسلامة، ولا ينفسون^(٤) على الشيوخ ما ينفسونه على الفتيان والكهول..

(١) أى تفضيل. (٢) لا يجنحون: لا ميلون. (٣) أى الظاهرة.

(٤) نفس عليه: حسده، ونفس عليه الشيء: لم يره أهلا له.

كل أولئك وأبو طلحة الأنصاري رئيس الجند ينذرهم ويقسم لهم
«بالذي ذهب بنفس عمر» لا يزيدنهم على الأيام الثلاثة، ثم يجلس في بيته
فينظر ما يصنعون، وينفذ الأمر فيمن خالف وأصر على الخلاف.

ولئن كان عمر موفقا في اختيار كل لعلمه، لقد كان اختياره لأبي طلحة
أوفق ما في هذا التوفيق. إنه الرجل الذي آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي عبيدة
الجراح أولى الناس في رأى عمر بالخلافة لو عاش، وهو البطل الذي ثبت في
وقعة أحد يوم انهزم أشجع الشجعان، ولزم النبي في ذلك اليوم المشهود يقف
بينه وبين السهام والسيوف، وتطاول ب صدره ليدفع عنه ضربات المشركين الذين
عرفوه وتعمدوه ليصيبوا الدعوة في مقتلها إذا أصابوه، وشهد أبو طلحة ووقعة
حنين فبارز عشرين خصما وصرعهم، وصاح صيحته التي كلن - عليه السلام
- يقول: «إنها في الجيش خير من مائة رجل».. ولم يكن ييالى الموت وهو
في سعة من دنياه، ولم يكن يعرف غير الجلد فيما يعمل أو يقول..

وقد أوفى بأمانته في أيام الشورى فلم يدعهم حتى فرغوا من عملهم
في صبيحة اليوم الثالث، وكان فيه فصل الخطاب.

في تلك الليلة أتى عبد الرحمن بن عوف منزل المسور بن مخرمة،
فأيقظه وأرسله يدعو الزبير وسعدا، ثم بدأ بالزبير فقال له: «خل بنى عبد
مناف وهذا الأمر» قال الزبير: «نصيبى لعلى» ثم قال لسعد: «اجعل نصيبك
لى فنحن كلاله^(١)» - أى أبناء عم من بعيد - وكلاهما من بنى زهرة. فقال
سعد: «إن اخترت نفسك فنعم، وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى» ثم قال:
«أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا» فاعتذر عبد الرحمن لأنه خلع
نفسه منها، وأعاد عليه مقالته: إنه لا يقوم مقام أبى بكر وعمر أحد بعدهما
ويرضى الناس عنه..

(١) الكلاله: بنو العم الأبعد، وقيل: الكلاله، مصدر من تكلمه النسب: أى تطرقه كأنه
أخذ طرفيه من جهة الوالد والولد، فليس له منهما أحد.

ثم كان على وعثمان آخر من دعاهم في تلك الليلة: دعا عليا فناجاه^(١) طويلا، ثم دعا عثمان فناجاه إلى صلاة الصبح، ويظن أنه سأل كلا منهما عما ينويه إذا ولي الخلافة، وعن وصية عمر بعمال الولايات أن يتركوا في ولاياتهم عاما بعد وفاته، ثم يصنع الخليفة ما بدا له من إقرار أو عزل على حسب أحوالهم وأحوال ولاياتهم، وأنه سأل كلا منهما عن سياسته عامة وخاصة في شئون الأفياء^(٢) والأرزاق والأجناد والسرايا والمغازي وسائر ما يتولاه من أمور الخلافة، ولا يقطع أحد بما دار بين عبد الرحمن وبين كل من علي وعثمان على حدة، وأغلب الظن أن الذين ذكروا شيئا من هذا إنما ذكروه مستنبطين ولم يذكروه نقلا عن عبد الرحمن أو عن علي وعثمان. . . قال عبد الله بن عمر: من أخبرك أنه يعلم ما كلم به عبد الرحمن بن عوف عليا وعثمان فقد قال بغير علم.

وحانت صلاة الصبح فصلوا في المسجد، وجمع عبد الرحمن رهط^(٣) الشورى وبعث إلى من كان بالمدينة من أهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد فاجتمعوا حتى التبح^(٤) المسجد بأهله. وقام عبد الرحمن فقال: «أيها الناس! . . إن أهل الأمصار قد أحبوا أن يلحقوا بأمصارهم وقد علموا من أميرهم». فصاح به سعيد بن زيد أحد ذوى السابقة الأولى في الجهاد: «إنا نراك أهلا لها». قال عبد الرحمن: «زشيرو علي بغير هذا». قال عمار بن ياسر: «إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا» وقال المقداد بن الأسود: «صدق عمار. إن بايعت عليا قلنا: سمعنا وأطعنا». وإذا بعبد الله بن أبي سرح يناديه: «بل تباع عثمان فلا تختلف قريش» ويشني عبد الله بن أبي ربيعة فيقول: «صدق. . إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا». فتنازب^(٥) عمار وابن أبي سرح، واختلط القول بين بني هاشم وبني أمية، فعاد عمار يقول: «أيها

(١) أى أسر له فى القول. (٢) جمع فىء، والفىء: الخراج والغنيمة. (٣) جماعة.

(٤) أى امتلا وأردحم. (٥) تنازبا: أى تلاقيا وتعايبا.

الناس! .. إن الله عز وجل أكرمنا بنيه وأعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟» وبادره رجل من آل مخزوم شامًا: «لقد عدوت طورك^(١) يا ابن سمية! .. وما أنت وتأمير قريش لأنفسها؟».

وضاق سعد بن أبي وقاص صدرًا بهذه المنايزة وهذا الصخب، فصاح بعبد الرحمن: «يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس».

ولا ندري هل تعمد عبد الرحمن هذا التمهّل قبل إعلان البيعة، أو أنه سكت حين اعترضه المعترضون باللجاج والمنايزة فالغالب من تصرفه في أمر الشورى أنه كان يخطو الخطوة ثم يتبعها ما بعدها بحساب وأناة^(٢)، وآخر ما كان من ذلك أنه أرجأ^(٣) محادثة اللذين انحصرت فيهما الأقوال حتى كان آخر من تحدث إليه، وأنه لما دعاهما دعا عليًا ثم ثنى بعثمان ..

فإن كان قد تمهّل في المسجد على عمد فقد أحسن الروية، لأنه سكت تى أيقن الحاضرون بما رأوه وما سمعوه أن الفتنة موشكة أن تكسر عن نابها إن لم ينته الناس من مبايعة خليفتهم تلك الساعة! .. هذا يذكر اتفاق قريش، وهذا يشترط، وهذا يقابل شرطه بمثله، وهذا يتكلم عن بنى هاشم، وهذا يتكلم عن بنى أمية. فلما صاح سعد صيحته بعبد الرحمن: أفرغ يا عبد الرحمن قبل أن يفتتن الناس. كان صوته في تلك اللحظة كأنما هو صوت المسجد كله يتكلم بلسان واحد.

وأسرع عبد الرحمن فقال: «إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سيلا» ودعا عليه وقال: «عليك عهد الله وميثاقه لتعلمن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده». فقال: «أرجو أن أفعل أعمل بمبلغ علمى مع اجتاد رأى» ودعا عثمان فقال له كذلك: «عليك عهد الله وميثاقه لتعلمن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده». فقال: «نعم».

(١) عدوت طورك: تجاوزت حدك. (٢) تمهّل وروية. (٣) آخر.

فرجع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال:
«اللهم اسمع واشهد.. أنى قد جعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبته عثمان»
ثم بايعه بالخلافة، وبايعه المهاجرون والأنصار.

وجاء فى بعض أخبار ذلك اليوم: أن عبد الرحمن بن عوف لما بايعه
ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه^(١) عند المنبر فقعده عبد الرحمن مقعد
النبي - صلوات الله عليه - وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس
يبايعونه، وأبطأ على فقال عبد الرحمن: «ومن نكث^(٢) فإنما ينكث على
نفسه. ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتاه أجرا عظيما^(٣)» فرجع على يشق
الناس حتى بايع وهو يقول: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون^(٤)».

وقد بايع رهط الشورى عثمان فى المسجد ما عدا طلحة فإنه كان غائبا
فقدم بعد ذلك وعلم بالبيعة فسأل: «أكل قريش راض به؟» ثم قال له عثمان
حين ذهب إليه: «أنت على رأس أمرك.. إن أبيت رددتها» قال طلحة:
«أتردها؟» قال: «نعم». فسأله: «أكل الناس بايعوك؟» قال: «نعم» قال: «قد
رضيت لا أرغب عما قد اجتمعوا عليه»..

ولا نلتفت هنا إلى زوائد الأقاويل عما خدع عليا وعمن خدعه. فإن ما
أجملناه هنا من شتى الروايات هو الأشبه والأمثل بهم أجمعين.

ولكننا نلم بطرف من تلك الأقاويل، حيث يزعم بعض الرواة أن عليا
بايع وهو يقول جهرة: «خدعة وأى خدعة». وإنه يعنى بذلك أن عمرو بن
العاص خدعه فانخدع. وأن ابن العاص لقيه فى ليالى الشورى فألقى فى
روعه أن «عبد الرحمن بن عوف رجل مجتهد، وإنك إن أعطيته شرطه، زهد
فيك... ولكن تقبل على الجهد والطاقة». ويزعم أصحاب هذه القصة أيضا

(١) غشوه: غطوه. (٢) نكث العهد: نقضه. (٣) من الآية: ١٠ من سورة الفتح.

(٤) من الآية: ١٨ من سورة يوسف.

أن ابن العاص لقي عثمان فقال له: «إن عبد الرحمن رجل مجتهد، وليس والله يبايعك إلا بالعزيمة» أى وفاقا لشرطه، فأقبل منه عزيمته يبايعك عليها.

فهذه القصة وما هو من قبيلها ضرب من ضروب المخترعات المألوفة ممن يحبون أن يسندوا كل شيء إلى دهاء الدهاة وخديعة المخدوعين، فما كان على بالذى يعتقد أن عمرو بن العاص يتآمر معه على عبد الرحمن وعثمان، وما كان عثمان بالذى يتلقى سر عبد الرحمن من عمرو بن العاص وما تخطر هذه الخواطر إلا على بال الذين يتعشقون بطولة الدهاء فيضعون عمرو بن العاص بحيث يعرف سر عبد الرحمن ويعرف الشرط الذى سيعرض به الخلافة على على وعثمان، ويجعل هذا يقول «نعم» ويجعل ذاك يقول «لا» كما يشاء..

والأشبه والأمثل بهم جميعا أن يكون عبد الرحمن بن عوف وغيره يشترطون ذلك الشرط بعينه على من يقبل أمانة الخلافة فى تلك الآونة، وأن عليا وعثمان يقولان ما قالاه فى جوابه، ولا حاجة إلى دهاء ولا إحياء من النصحاء والوسطاء..

إن حكم الحال أصدق من حكم المقال فى جميع الأخبار، وهو كذلك على التخصيص فى أخبار هذه المبايعة، إن لم يكن فى رواية الأقوال والحوادث ففى رواية الشعور الذى كان يخامر^(١) الصدور ويتجمع فيها منذ زمن بعد: شعور بحال لا تدوم، وخوف من تغيير وتبديل، واجتهاد فى منع التغيير والتبديل أو فى اجتناب الضرر منهما جهد^(٢) المستطاع..

ومن الأحاديث التى رويت عن النبى ﷺ أن الخلافة ثلاثون سنة ثم هى بعد ذلك ملك عضوض^(٣).

ومن كلام أبى بكر فى معارض شتى: أن الدنيا موشكة أن تغير من

(١) يخامر: يخالط. (٢) أى قدر. (٣) عضوض: أى يعض عليه.

النفوس ما لا يحمد تغييره، ومن كلام عمر وعمله فى أيامه جميعا ما ينم على حذر كهذا أو أشد من خطر الدنيا على نفوس الأقطاب الكبار فضلا عن الدهماء (١) وسواد (٢) الدنيا.

وكانت لهذا الشعور أحيان (٣) يشتد فيها ويغلب على الناس عامة حتى كأنه بديهية حاضرة لا تحتاج إلى تفكير، ومن هذه الأحيان فترات التوجس (٤) والترقب بين عهد وعهد منذ أيام النبى ﷺ: بين وفاة النبى وقيام أبى بكر. وبين وفاة أبى بكر وقيام عمر، وبين وفاة عمر خاصة وقيام عثمان.

ولما حدثت فتنة الردة فى أوائل عهد أبى بكر دهش الناس ولم يدهشوا، دهشوا لأنهم فوجئوا، ولم يدهشوا لأنهم - وقد وقع الذى وقع - لم يستغربوه، ولم يستكثروا حدوثه بعد صدمة كتلك الصدمة الهائلة، وبعد غياب صاحب الدعوة ومتعهداها، وصاحب المنزلة التى لا تدانيها فيهم منزلة ثم أصبح التوجس والترقب ديدنا (٥) فهم فى كل فترة من قبيلها، فتساءلوا بعد موت أبى بكر: ماذا عسى أن يكون بعد هذا الخليفة الرفيق الرقيق؟ ولعله تساؤل لم يعتتهم (٦) كثيرا ولم يطل بهم أجله غير قليل. إذ كان أبو بكر لا يبرم أمرا (٧) بغير مشورة عمر، وكانت سياسة الشيخين سياسة واحدة تلين معهما تارة وتشتد تارة أخرى. فلما أشفق الناس بعد وفاة أبى بكر لم يشفقوا من تبديل سنة مرعية أو خروج على جادة متبعة. ولكنهم أشفقوا من شدة فيها وصرامة فى حمل الناس عليها، ثم ذهب عمر بغتة والناس يستعظمون الخطوب، ويلمسون بوادر التغيير من بعيد ومن قريب، فعادوا إلى ديدنهم فى أمثال هذه الفترة. وخيل إليهم أن كل أمر جائز وكل خطر متوقع خلال هذه النقلة مما علموه إلى ما يجهلون ويوجسون منه ويترقبونه..

(١) أى جماعة الناس. (٢) سواد الناس: عوامهم. (٣) جمع حين: أوقات.

(٤) التوجس: التخوف. (٥) ديدنا: أى عادة وطبيعة.

(٦) أى يشق عليهم. (٧) أبرم الأمر: أحكمه.

وفى كل كلمة بدرت، وكل وصاة قيلت فى هذه الفترة، إعراب مقصود أو غير مقصود عن هذا الشعور الغالب الذى بلغ أقصاه يومذاك: شعور بحالة يخشى ألا تدوم، وخوف من تغير لا يدرى كيف يتقى..

عمر يوصى ببقاء الولاية عاما، ويتوقع الفواجع^(١) من الأثرة والإيثار، ويريد «من يحمل الأمة على الحق» ومن يشتد فى غير عنف ويلين فى غير ضعف.. وعبد الرحمن يعلم أنه لا رضى عن أحد بعد الصديق والفاروق، ولا طمأنينة للناس إلا أن يطمئنوا إلى سيرة كالسيرة الأولى، وهم لا يعلمون من أين يأتى التبدل والانحراف.

إن تقرير هذه الحالة النفسية أهم من إحصاء مئات الحوادث والأقوال التى انحدرت إلينا من تلك الفترة، لأن الحوادث والأقوال لا تفهم بغير فهم تلك الحالة النفسية، ولعل تلك الحالة فى كثير من الأحيان هى مبعث الحوادث وأقوال القائلين فيها، فما كان أحد يعيب سياسة عثمان مخلصا أو غير مخلص إلا كان الحذر من تبديل السنن ونقض السوابق حجة له يسوقها فى خطابه للخليفة أو خطابه للخاصة والعامة من رعيته، وأصبح حضور هذا الحذر فى الأذهان من دواعى المبالغة فى تعظيم المخالفات وخلقها من غير شئ على نية حسنة عند بعضهم وعلى نية سيئة عند الأكثرين، لأنها كانت نعمة العصر التى تفتح الآذان، وتتأهب لآذان لاستماعها فى كل مكان.

وأهم من ذلك أن عثمان على رأس المسلمين قد ساوره^(٢) ذلك الشعور وداخلته تلك الحالة النفسية وجثمت فى سريرته حتى تمكن منه التسليم والاستسلام لما هو كائن لا محالة، فكان يقول لمحدثيه كما يقول فى خطبه: إن ما تبلى به هذه الأمة قدر واقع لا يدفع وأن فتنة الدنيا طغت على النفوس طغيانها الذى لا تجدى^(٣) فيه الحيلة أو المحاولة. وذلك كله مما نلمسه فى

(١) الفواجع: المصائب. (٢) ساوره: أخذ برأسه. (٣) أى لا تفيد ولا تنفع.

استسلامه آخر أيامه، وتركه المحاولة، أو عدوله عنها بعد المضي فيها، ونلمسه كذلك في شكه واسترأبته^(١) في صدق العاملين وتعويله^(٢) من أجل ذلك على أقربائه وخاصة ذويه عسى أن يصدقوه في رعاية السنن والمواثيق..

وتظهر تلك الحالة النفسية من خطبه الأولى كما تظهر من خطبه الأخيرة. فلما بايعه أصحاب الشورى خرج فيهم وهو أشدهم كآبة^(٣) حتى أتى منبر رسول الله، وقام يخطب الناس فارتج^(٤) عليه، وجاء في كلام من روى خبر الارتاج عليه أنه قال يومئذ: «أيها الناس.. إن أول مركب صعب، وإن بعد اليوم أياما، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها^(٥)، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله..».

مقام أدل من المقال، يدل على كثير.

وأول ما يدل عليه أنه لا تدبير ثمة ولا تحضير، فلو كان عثمان على علم باختياره للخلافة لما أعياه أن يعد لهذا المقام كفايته من المقال البليغ، ولكنها قد جاءت وهو لا يستبعد أن تفوته، ولا يزال يخشى في ذات نفسه أمام الله أن يتعجلها بالتحضير والتدبير، وأن يطوى في سره منها ما لم يكن له أن يبديه في العلانية.

ثم خطب فاتفقت الأقوال أو كادت على نصوص خطبه الأولى. وكان مدارها على فتنة الدنيا، والوعد باتباع السنن، واجتناب البدع، وتهدئة النفوس من قبل ما تخافه، ولا تخاف خطرا أكبر من خطره..

قال في خطبته الأولى: «إنكم في دار قلعة^(٦)، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم، صبحتم أو مسيتم. ألا

(١) أي تشككه من الريب.

(٢) تعويله عليهم: أي اعتماده عليهم.

(٣) الكآبة: الغم، وسوء الحال، والانكسار من حزن.

(٤) أي تلغثم ولم يقدر على إجادة الكلام.

(٥) وجهها: أي سبيلها المقصود.

(٦) قلعة: غير ثابتة لا تدوم لأحد.

وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. اعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوه فإنه لا يغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا، ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها. .».

وقال في أوائل خطبه: «... إنى قد حملت وقد قبلت. ألا وإنى متبع ولست بمبتدع. ألا وإن لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثلاثا: اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسنتم. وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم. ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا^(١) إلى الدنيا ولا تتقوا بها فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها. .».

إن أقرب الأخبار إلى الصدق ما تهم بأن تنفيه فيحتمى صدقه بأية من دواعيه قبل النفس وقبل الواقع، وكل ما كان خليقا أن يحدث عند مبايعة الخليفة الثالث قد حدث على وجهه الذى يطابق الواقع والمتوقع، وفي هذه الخطبة مطابقة لما يتطلبه الموقف من المعدات والعهود، وفيها زيادة وعد «بالكف عن الناس إلا فيما استوجبوه».. ولعلها الزيادة التى أتت فى أوانها بعد ما تملل^(٢) منه القوم من صلابة عمر ومنعه إياهم أن ينساحوا فى الدنيا خوفا عليهم منها وخوفا منهم عليها.

أما المكائد التى أبدعتها أوهام المتوهمين فقد يبطلها قبل كل شىء إنها ليست بمكائد تعمل عملا ينفع من يكيدها.

ومن هذه المكائد ما يخيل إلينا أن مخترعيها وضعوا حين وضعوها «قصة مسرحية» يعطون كل بطل من أبطالها دوره فى الكلام ودوره فى الدخول والانصراف، ومنها ما يخيل إلينا أن أصحاب الشورى كانوا عصابة محضرة مستعدة على مصارحة بينها لحرمان هذا واجتباء^(٣) ذلك، وإحدى هذه

(١) تركنوا: أى تطمثنوا. (٢) تملل: تقلب. (٣) اجتباء: اختبار.

الخيالات خيالة المستشرقين الذين توهموا أن أصحاب الشورى خصوا عثمان باختيارهم لأنه شيخ يدلف^(١) إلى منيته^(٢) فكلهم يطمع فيها بعد موته. أفحدث حقا أنهم خصوه وعرفوا يقينا قبل أن يبايعه عبد الرحمن من سيكون مختاره ومجتباه؟

وفي مكيدة أخرى من هذه المكائد التي «يسرحها» المخترعون لها أن اختيار عثمان قرر الملك لبنى أمية على نية ميته^(٣)، فهل هي مسرحية يكتبها التاريخ نسخة بعد نسخة، ويريد هنا غير ما يريده هناك؟..

ولماذا تطمع القبائل أن تتداول الخلافة بعد خليفة من بنى أمية، وهم أقدر على احتجاجها^(٤)، وأرغب في الاستئثار بها بعد مالها إليهم في صدر الإسلام؟..

كل هاتيك حيل مسرحية توضع لها أدوارها وأعمالها حسب منهاج التأليف. وأولاها بالقبول ما ليس وراءه تحضير ينتظم كما ينتظم التحضير في المسرحيات: شيء يراد وشيء لا يراد. ويعالجه فيستطيعه تارة ويعيب به تارة أخرى فينقلب على غير ما تعمدته وانتحاه.

وعلى هذا النحو المطبوع آلت الخلافة إلى عثمان.

(١) يدلف الشيخ: يمشى مشى المقيد وفوق الديب.

(٢) المنية: الموت. (٣) أى مسبقه.

(٤) يقال: حجن فلان فلانا: أى صده، وصرفه، وجذبه بالمحجن.

الخلافة

بين هذه النذر قامت أصعب خلافة تولاها خليفة قط في صدر الإسلام، وقد كانت ثورة المرتدين في أول خلافة الصديق محنة شديدة نهض لها المسلمون جميعا متساندين متأزين. فابتلى عثمان في أول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه: الخلاف في الداخل، والتغير في الدواعي النفسية، وهو أخطر المصاعب جميعا في خلافة عثمان.

كانت هيبة عمر تملأ الجزيرة العربية وما حولها، وكان أصحاب الدولتين الكبيرتين من الروم والفرس أهيب له من رعيته في الجزيرة، لأن هذه الرعية تعتصم من هيئته بحق يعرفه لها وتعرفه لنفسها، ولم تكن للروم والفرس عصمة من هيبة إلا بالحدز والدسيسة، ورستم بطل الفرس المشهور الذي كاد أن يصبح من أبطال الأساطير هو القائل عن عمر: «أحرق كبدي عمر. إنه يكلم الكلاب فتفهم عنه!».^(١) يعني أنه جعل من عرب البادية الذين ازدراهم الفرس أبطالا كالأسود بفضل ما يسدى إليهم للمؤرخين في صدر الإسلام أن الهرمزان كان من المتأمرين مع أبي لؤلؤة على قتل عمر، وهو خاطر قريب إلى الذهن ولو لم يعتمد فيه المؤرخون على غير القرائن التي شهد بها يومئذ شهود الفاجعة^(٢) قبل وقوعها، ولكننا نحسب أن المؤامرة أكبر جدا من ظواهرها التي تحصرها في أبي لؤلؤة والهرمزان. وأن تدبيرها في معسكرات فارس وبلاد يزدجرد وحاشيته أقرب إلى الخاطر، وأدنى إلى المنظور في مجمل الأحوال.

فما هو إلا أن ذاع^(٣) في ساحات المشرق والمغرب مقتل عمر، حتى تلاحقت الثورات والفتن كأنما كانت على موعد، وتمرد من قبائل الفرس والترك والروم من كان قد أذعن^(٤) وتعاهد مع قادة الحرب على الصلح

(١) ازدراهم: احتقرهم. (٢) الفاجعة: ما تؤلم الناس بالدواهي. (٣) أى انتشر.

(٤) أذعن: خضع.

والطاعة ، نقضت دولة الروم وصلحها فأغارت على الإسكندرية برا وبحرا وأرسلت أساطيلها إلى شواطئ فلسطين، وأطلقت في الميادين خفية من ييـث فيها الوعد والوعيد ويغرى المطيع بالعصيان، وأحصى المؤرخون البيزنطيون عدة السفن والجيوش التي اشتركت في حركات الثورة والانتفاض، فقال بعضهم: إنها تجاوزت خمسمائة سفينة ومائة ألف مقاتل، وسرعان ما تسايرت الأبناء بهذه الزخوف بين الخزر والأرمن ومن وراءهم من الشعوب الآسيوية، فهبوا يتعللون بالذرائع^(١) لنقض الصلح، أو ينقضونه بغير ذريعة وينتهزون الفرصة التي علموا أنها لا تسنح مرة أخرى إذا استكانوا^(٢) للطاعة والمسألة.. . لقد كانت محنة كمحنة الردة أو أكبر منها في اتساع ميادينها وتباعد أطرافها.. .

وكان عثمان كفوًا لها بالعزم والرأى والسرعة في تصريف الأمور وتسيير النجـدات وإسناد كل عمل إلى من يحسنه ويسد فيه أحسن سداد.. .

ولقد درج العاذرون واللائمون في تاريخ عثمان على التسليم بضعفه كأنه حالة لا تفارقه في جميع أعماله، أو كأنه حالة لم تفارقه قط في عمل بما تولاه.. .

فالذين آمنوا منه بحسن القصد، كانت معذرتهم له بالضعف واللين أسبق معاذيرهم إلى ألسنتهم حيث يوفقون بين خطئه وحسن قصده، والذين أفرطوا في اللوم جعلوا من ذلك الضعف خطأ^(٣) في الرأى قد يغطى على حسن النية لو افترضوه وسلموه. وهؤلاء وهؤلاء يستغربون أن يقال: إنه كان كفوًا لتلك المحنة بعزيمته وأصالة رأيه، ويخيل إليهم أن كلمة «الضعف» تلغى كل قوة وتبطل كل عزيمة، أو ينسون أن الضعفاء لا يتساورون، وأن الضعف لا يلازمهم في كل ما يعملون، وأن الضعف كالمرض تتفاوت فيه مناعة^(٤)

(١) الذرائع: أى الأسباب. (٢) استكانوا: خضعوا واستسلموا. (٣) خطأ: أى فسادا.

(٤) مناعة: أى حصانة.

الأبدان ومناعة النفوس، فقد يعدى القوى الركين وإلى جانبه النحيل الهزيل لا تسرى^(١) إليه عدواه، وقد يكون القوى فى حالات أضعف من الضعيف فى حالات، وهذا مع التسليم بضعف عثمان على العلات، وهو قول لا يقبل على إطلاقه، إذ لا نرى من علامات ضعفه إلا ما يظهر فيه الضعف بالنسبة إلى موقف من المواقف قد يحار فيه الأقوياء كما يعبى^(٢) به الضعفاء.

فلا تنس أن عثمان قد ولى أعمالا ناجحة فى الجاهلية والإسلام، وإن من هذه الأعمال قوافل تترحل فى الصيف والشتاء، وتوافق مطالب اليمن فى الجنوب والشام فى الشمال، وأنه استطاع أن يصرف هذه القوافل ويوائم تلك المطالب وهو مقيم فى مكة أو المدينة، وأنه تعود أن يستشار فيما يحضره ويغيب عنه، وأنه تعود كذلك أن يعرف مشورة غيره فى مثل عمله، وأن يعرف أخبار من تقدمه ومن عاصره من نظرائه، وأنه بعد الإسلام قد لازم ولاية الأمر فى السياسة والحرب من عهد النبى ﷺ إلى عهد الفاروق، وشاركهم فى كثير، سمع أوامرهم وحضر مشاوراتهم فى كثير.

فلا تكونن كلمة الضعف حاضرة فى الذهن كلما حضرت حادثة من حوادث سيرته أو آية من آيات عزمه وتدبيره، وليكن للضعف محله فلا يشغل كل محل فى معارض هذا التاريخ العجاب.

إن علاج عثمان لمشكلات الدولة «الخارجية» التى فاجأته بعد ولايته قد كان كأحسن علاج يتولاه خليفة فى تلك الآونة^(٣): عزم وسداد وسرعة، مع الحيلة والأناة والرفق فى سياسة الأولياء والخصوم.

ولا شك أن الخليفة كان معانا على عمله، ولم يكن منفردا يعبته فى تلك المحنة الجائحة: كان معانا عليه بحمية الجند وكفاية القادة، وكانت حمية الدين التى حفزت دعاة الإسلام من نصر إلى نصر ومن عزمة إلى عزمة،

(١) أى لا تنتقل. (٢) أعياء الأمر: أجهده وأتعبه. (٣) الآونة: أى الفترة.

وصحبتهم من بدر إلى القادسية وتبوك وبليبيون، صامدة على سمتها كأقوى وأقوم ما كانت في يوم من أيامها، بل لعلها في حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقوم من حروبها في الجزيرة العربية إذ كانت أنفة العربي أن ينهزم أمام المتعجرفين^(١) عليه من الأعاجم كفيلة أن تنفث^(٢) في قلبه الغضبة القوية التي لا تثيرها حرب العربي للعربي والشبيه بالشبيه.

كان حبيب بن مسلمة الفهري يقاتل الروم في ميادين سورية وفلسطين، فاستعان بمدد من الجزيرة فوصل إليه، واستعان بمدد من الكوفة فأبطأ عنه، فلما أقبلت الروم قبل وصول المدد وهم لا يتوقعون القتال مع قلة الجند في معسكر العرب أتاهم حبيب من حيث لم يتوقعوا وبيتهم بليل^(٣). فانتصر وانهزموا.. وأن الدهشة من هذه الجرأة لتغمرها حتى لتكاد تمحوها دهشة أخرى من دهشاتها التي لا عداد لها في كل وقعة من وقعاتها: كانت أم عبد الله امرأة حبيب معه وهو ينوى الهجمة بليل قبل أن يسفر نور الصبح ويأتي المدد المرتقب، فسألته: أين الموعد؟ قال: سرادق «الموريان» أو الجنة فوجدها عند السرادق قد سبقته إليه.

وقبل هذا أعين الصديق والفاروق بحمسية الأجناد وكفاية القواد، ولكن أعباء الجهاد في أوائل أيام عثمان كانت أشق وأكبر وأحوج إلى التوجيه الناجز، والتصريف الذي يلا يغنى الإجمال فيه عن التفصيل، على حسب الأطوار المتجددة والطوارئ المتقلبة، لامتداد خطوط القتال وتعدد الفتن وتباعد المسافات بين البلدان وتكاثر العناصر والأجناس في جيوش المسلمين، فقام الخليفة الشيخ بأعبائه الجسام على أحسن ما يقام بها في تلك المحنة الجائحة،

(١) العجرفة جفوة في الكلام، وخرق في العمل، والإقدام في هوج، وهو يتعجرف: أى يتكبر، ويتعجرف عليهم: يركبهم بما يكرهونه ولا يهاب شيئاً.

(٢) النفث: شبيه بالنفخ ودون الثفل.

(٣) بيت الأمر: دبره ليلاً، وبيت العدو: أوقع بهم ليلاً.

وكان له ولا شك أكبر الفضل فى تثبيت مهابة الدولة الجديدة بعد ما أصابها من الوهن والتخلخل عند مقتل عمر، فوقر فى أخلاذ الأمم المحيطة بها أنهم ينازلون قوما لا يقدر فى قوتهم موت خليفة أو تبديل قائد، وإنهم متصرون مستميتون فى سبيل النصر على اختلاف القادة والرؤساء، فقتل بعد هذه التجربة عثمان، ثم قتل على، ثم مات معاوية ثم مات يزيد وتخلى معاوية الثانى عن الملك وانقسم المسلمون على أنفسهم ولم تقم للثورة عليهم قائمة فى بلاد الروم أو بلاد الفرس إلا ما كان من شغب متفرق على غير وجهة، يعرفون^(١) الدول داخلها ومن خارجها بلا انقطاع ولا يخاف منه على دعائمها وأركانها.

ولم يقنع عثمان بتسكين الثورات حيث يكفى فيها التسكين، أو قمعها حيث تحتاج إلى القمع^(٢) فى بلاد الطغاة والمتجبرين، فصالح من صالح وحارب من حارب، ثم أمر قواده بمجاورة البلاد التى نشبت فيها الثورات إلى ما وراءها منعا لارتداد الهارين إليها وانبعاث الفتن والدسائس من قبلها، فتقدمت جنوده شرقا إلى حدود الهند والصين، وشمالا إلى ما وراء بحر الخزر، وغربا إلى أبواب القسطنطينية وتخوم الأندلس، وجنوبا إلى السودان وجوانب الحبشة، ولم يؤخذ عليه قط وناء^(٣) فى إنفاذ نجدة أو تسيير مدد أو تدارك خطر فى أوانه من أقصى تلك البقاع إلى أقصاها.

وعرضت له مسألة عسيرة من المسائل التى استطاع الفاروق إرجاءها^(٤) ولم يكن ثمة بد من عودتها فى أوانها:

عرضت له غزوة قبرص ورودرس وجزر بحر الروم، وإعداد العدة لدفع الغارات لبحرية عن شواطئ مصر والشام والقيروان، فكانت بحق مسألة - بل مشكلة - من المشكلات التى لم تستحکم قبل أيامه ولم تتطلب الحل السريع

(١) اعتراه: غشيه.

(٢) القمع: القهر.

(٣) وناء: ضعف، وفتر وکلال، وإعياء.

(٤) أى تأجيلها.

من ولى لأمر المسلمين فى الجزيرة العربية، أو فى البقاع التى انتهت إليها الفتوح.

وكان من سياسة عمر ألا يجعل بينه وبين جيش من المجاهدين بحرا ولا جسرا ولا قنطرة، وأن يجنبهم ركوب البحر ما استطاع، وكان معاوية يلح عليه فى غزو الروم بحرا ويهون عليه خطب هذه الغزوات ولا يفتأ يحضه على ذلك ويقول فيما قاله حضا عليه: «إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دحاحهم» يعنى جزيرة أرواد..

فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يسأله أن يصف له البحر وراكبه ويقول له «إن نفسى تنازعنى إليه».

فكتب إليه: «إنى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء. إن ركذ^(١) خرق القلوب وإن تحرك أزاغ^(٢) العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، وهم فيه دود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق^(٣). .» إلى آخر ما هول به عليه، فأقسم عمر لا يحملن عليه مسلما أبدا، ورضى من ملك الروم بترك القتال، ثم زاد ملك الروم فكاتبه وقاربه وبادلته الهداية، وأرسل مع البريد هدية من الملكة إلى السيدة أم كلثوم زوجة عمر تحتوى فيما احتوته عقدا فاخرا يقوم بأضعاف أضعاف هذية الطيب التى أرسلتها إليها أم كلثوم، فباع عمر العقد وأودعه خزانة بيت المال، وكتب إلى معاوية يحذره من القتال، وينذره أن يصيبه منه ما أصاب العلاء الحضرمى إذا هو أقدم عليه بغير إذنه.

أما قصة العلاء هذه فقد كان لها أثرها الذى لم ينسه عمر، ولم يزل عالقا بذهنه يعاوده كلما عاودوه بذكر البحر وغزواته، وخلاصتها: أن العلاء الحضرمى والى البحرين كانت بينه وبين سعد بن أبى وقاص منافسة فى

(١) ركذ: أى سكن. (٢) أزاغ: أى أمال.

(٣) من معانى برق: تحير حتى لا يطرف، أو دهش فلم يبصر.

الجهاد، فبرز^(١) اسم العلاء فى حروب الردة، ثم غلبه سعد فضلا وهمة فى وقعة القادسية «وأزاح الأكاسرة عن الدار وأخذ حدود ما يل السواد» . . قال ابن الأثير: «فأراد العلاء أن يصنع فى الفرس شيئا . . وقد كان عمر نهاه عن الغزو فى البحر، فعبرت الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا إلى اصطخر وبيزائم أهل فارس، وعليهم الهريذ، فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم . . واقتتلوا قتالا شديدا بمكان يدعى طاوس . وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة، ثم خرج المسلمون يريدون البصرة ولم يسجدوا إلى الرجوع فى البحر سيلا، وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعوا . .» .

قال ابن الأثير الذى نلخص منه قصة هذه الغزوة: «لما بلغ عمر صنيع العلاء أرسل إليه عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا . . وأمر العلاء بأثقل الأشياء عليه وهو تأمير سعد عليه، فشخص العلاء إلى سعد بن معه» ولم يكن أشد على نفسه من هذ العقاب الأليم، وما كان ليطيعه لولا إيمانه وتقواه وأنه استحقه بمخالفته من لا ينجو من عقابه مخالف كائنا من كان . .

وبقيت عبرة هذه الغزوة لا تنسى ولا تغيب عن فكر عثمان بعد عمر، وأوشكت مصائبها جميعا أن تعزى^(٢) إلى البحر وإلى كل ماء من بحار فارس والروم، ثم عادت المسألة - أو المشكلة - إلى عثمان فوجب أن يفصل فيها برأيه وهو على ذكر من سياسة عمر وسياسة أبى بكر من قبله: لا يحملن أحدا من المسلمين على ركوب البحر، أو على ركوب الغرر^(٣) فى قتال . .

ونظرة عثمان فى هذه المشكلة من أدل أعماله على نصيبه من الاجتهاد

(١) أى ظهر . (٢) تعزى: أى تنسب . (٣) الغرر: الخطر .

ومن الاقتداء، ومن أدل الأمور على إقدامه حيث يحجم من هم أشهر منه بالإقدام..

إن المشكلة هنا قد تغيرت، ولم يبق بينها وبين مجازفة العلاء الحضرمي غير شبه قليل..

تغير من ركوب البحر أنه أصبح اليوم ضرورة لا محيد^(١) عنها، بعد إذ كان مجازفة لا حاجة إليها..

فقد أصبحت قبرص ورودس وجزر الشاطئ القريب ملتقى ترتبص^(٢) فيه الأساطيل المتجمعة من أقطار دولة الروم، وأصبح امتناع السفن المغيرة بها خطرا على الشام وفلسطين ومصر والقيروان، لا يؤمن على غرة^(٣)، ولا على استعداد وأهبة^(٤) ثم كان ما كان من اختيار المسلمين ركوب البحار اضطرارا وتجربتهم للسفن كبارها وصغارها، فذلوا المركب العصبى الذى طالما تجنبوه، وتغيرت المشكلة ولم بق بينها وبين مجازفة البحرين غير شبه قليل..

وعلى هذا الشبه القليل بين الأمس واليوم لم تزل شبهة التغير بالناس قائمة لا تدفع إذا خيف الضرر، ووقع الخطر، وقيل: إن ولاة الأمر لم يحذروا ما كان حذرهم منه عمر، وأوجب الحذر منه على أتباعه وتابعيه.

وعسير أن يمنع غزو البحر، وعسير مثله أن يباح، فخرج عثمان من العشرين خير مخرج، وكتب إلى معاوية يأذن له ويشترط عليه: «ألا ينتخب الناس ولا يقترع بينهم، وأن يخيرهم، فمن اختار الغزو طائعا حمله وأعانه».

وعلى هذا الشرط غزا عبد الله بن قيس الجاسى قائد الأسطول خمسين غزاة «بين شاتية وصائفة»^(٥) فى البر والبحر لم يغرق أحد ولم ينكب^(٦)...».

(١) لا محيد: لا عدول. (٢) ترتبص: تنتظر. (٣) غره: خدعة. (٤) أهبة: عدة.

(٥) شاتية وصائفة: أى فى فصلى الشتاء والصيف. (٦) نكب: عدل.

واتفقوا مع أهل الجزر على شروط تخميرهم الغزة وتبيحهم أن ينزلوا بها
ليمنعوا نزول العدو بأرضها واحتماء الأساطيل المغيرة بمرافئها^(١)، ورتبوا
الحملة عليها من مصر والشام تأميناً للطريق من شرقها وغربها وجنوبها،
فأمّنوا البحر وأمنوه لمن يسلكونه من المسلمين والمسلمين، ولو أنهم تركوا البحر
وشأنه لاستعصى عليهم بعد ذلك أن يدفعوا غارة الروم من قبل البحر كما
دفعوها، وأن يسيطروا على سبل الملاحة خلال سنوات معدودات كما سيطروا
عليها..

وكانت هذه الهمة من عثمان في علاج الأخطار الخارجية حلاً نافعا في
شئون الدولة الداخلية إلى حين، لأن مدافعة الأخطار من الخارج شغلت
الناس زمتا عن شواغل السلم والدعة التي تفرقهم وتفرغ أوقاتهم للنقاش
والجدال فيما يعينهم أو لا يعينهم، ولكن مواقع الجهاد اختلفت واختلف عدد
المجاهدين فيها ونصيب كل مجاهد من غنائمها وأنفالها ومن رواتبها
وأعطيتها..

وبدأ ذلك في عهد عمر، كما تبدأ مشكلات الميادين التي لا تستقر على
قرار، بين الكر والفر، والإقامة والترحال، وتعاقب الأمراء والقادة في ميادين
القتال، فمما حدث في عهد عمر من ذلك: إن أهل البصرة شكوا عجز
خراجهم على كثرتهم، وأن أناسا يشاركونهم فيه ممن أقاموا معهم بعد تمام
الفتح، فاختصم أهل البصرة وأهل الكوفة «وادعى أهل البصرة قرى افتتحها
أبو موسى دون أصبهان، أيام أمد به عمر بن الخطاب أهل الكوفة، فقال لهم
أهل الكوفة: أتيتمونا مددا وقد افتتحنا البلاد، فأنشبتكم في المغانم، والذمة
ذمتنا، والأرض أرضنا. قال عمر: صدقوا. فقال أهل الأيام والقادسية ممن
سكن البصرة: فلتعطونا نصيبنا مما نحن شركاؤهم فيه من سوادهم
وحواشيهم. فأعطاهم عمر مائة دينار برضا أهل الكوفة، أخذها من شهد
الأيام والقادسية..».

(١) جمع مرفأ: وهو مكان من الشاطئ ترسو فيه السفن.

وقد عزل عمر والى الكوفة عمار بن ياسر واستعمل عليها أبا موسى، وكان أهل الكوفة يشكون عمارا ويقولون لعمر: أنه لا يدري علام استعملته، فسألهم: ومن تريدون؟.. قالوا: نريد أبا موسى، فولاه عليهم. فأقام عليهم سنة، ثم باع غلامه العلف فشكوه فعزله وصرفه إلى البصرة..

ولبث عمر مهموما مغموما بأمر هذه الشكايات، حتى اضطجع يوما بجانب المسجد وهو يفكر فيها، واستيقظ وهو مكروب بادي^(١) الأسى، فقال له المغيرة بن شعبة: ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين إلا من عظيم، فقال: وأى شيء أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير؟.. وأتاه أصحابه وهو بتلك الحال من الغم والأسى فسألوه: ما شأنك؟.. فقال: إن أهل الكوفة قد عضلوني^(٢). واستشارهم فيمن يوليه، فأشاروا عليه بتولية المغيرة، فولاه وأقام واليا عليها أكثر من ستين إلى مقتل عمر، وكان من رأى المغيرة الذى استمع إليه عمر: إن الوالى القوى المسدد أصلح من الضعيف التقى «أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك وعلى المسلمين، وأما القوى المسدد فإن سداده وقوته لك وللمسلمين».

ولم ينحسم هذا الخلاف فى عهد عمر ولا فى عهد عثمان ولا فى عهد على إلى أيام الدولة الأموية، فكان معاوية يأخذ لجند قنسرين بنصيب من فتوح العراق وأذربيجان والموصل والباب، وهكذا كان يحدث فى الميادين عامة بين من ظفروا فيها ثم تحولوا عنها إلى غيرها، وبين من أقاموا فيها ولم يشهدوا فتوحها، ولا ظلم ولا غبن فى التقسيم والتقدير، وإنما هى جرائم^(٣) السعة واشتباك النظم والولايات وكثرة الأمداد التى تنتقل من ميدان إلى ميدان ومن ولاية إلى ولاية. ولنا أن نقول: إنها جرائم الاختلاف من نظام الخلافة إلى نظام الملك، والدولة التى تواجهها كل يوم قضية من قضايا المعيشة مقرونة

(١) أى ظاهر الحزن. (٢) عضل عليه: ضيق، وعضل به الأمر: اشتد.

(٣) جمع جريمة، والجريمة: الذنب والجنابة.

بقضايا الجهاد، أو قضية بن حالة عاجلة وحالة باقية على مدى الأيام، ولا
ينفصل فيها نظام المعيشة، ونظام الجهاد كل الانفصال . .

وليس بالنادر بين هذه القلائل أن يخف الجيش لنجدة جيش آخر فلا
يصل إلى المكان المحصور أو المهدد إلا بعد الاستغناء عن نجدته، وليس بالنادر
أن تتنافس الجيوش بالقادة والسمعة والسابقة فينفس^(١) بعضها على بعض أن
ينحاز لقيادته، أن يكون أميره تابعا لأمير آخر لم يعرفه قبل ذلك .

ومما اتفق من ذلك أيام عثمان، أن حبيب بن مسلمة الذى سبقت
الإشارة إليه كتب إلى عثمان يسأله المدد، فكتب عثمان إلى معاوية فى الشام
يأمره أن يشخص إليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغب فى الجهاد،
وكتب إلى سعيد بن العاص فى الكوفة يأمره بأن يمد حبيبا بجيش عليه سلمان
ابن ربيعة الباهلى، فسار سلمان فى ستة آلاف من أهل الكوفة ولم يصل إلى
حبيب إلا بعد فراغ حبيب من حملته الظافرة على الموريان .

ولقد كان كلاهما - حبيب وسلمان - من أشجع القواد وأخبرهم بفنون
القتال، وكان كل منهما «غزاة»^(٢) معروف السابقة فى ساحات جزيرة
والشام، فلما أراد سلمان أن يلبي أمانة الجيشين أبى عليه حبيب ذلك، ودخل
جند القائديم فى المنافسة، وقال أهل الشام لنضر بن سلمان إن أبى إلا الرئاسة
علينا . فأجابهم أوس بن مغراء من جند سلمان بشعر يقول فيه :

فإن تضربوا سلمان نضرب حبيبيكم

وإن ترحلوا نحو ابن عفان فارحلوا^(٣)

(١) نفس به: ضن، وعليه تحجير: حسد، ونفس عليه كذا: لم يره أهلا له .

(٢) أى شارك فى الكثير من الغزوات .

(٣) الشعر فى تاريخ الطبرى (ط . المعارف) ٣٠٧/٤ وابن الاثير ٥٥/٣ وفيهما: «وإن ترحلوا

نحو ابن عفان نرحل» .

وإن تقسطوا فالشجر ثغر أميرنا

وهذا أمير في الكتاب مقبل

ونحن ولاية الشجر كنا حماته

ليالى نرمى كل ثغر وننكل

ولكن القائدين كانا أحكم وأكرم من أن تفسد عليهما هذه المنافسة عملا
حاضرا بين أيديهما، فافترقا على أن يوغل حبيب في غرب أرمينية وأن يوغل
سلمان في شرقها، وأن يتلاقيا إلى الشمال بعد فتح المواقع بينهما، فدان لهما
ما بين البحر الأسود وبحر الخزر، وصرفا بأسهما إلى العدو ضنا بقوة الجيشين
أن تفرق في المنافسة على الإدارة والسمعة، ولكنها منافسة كانت تحتدم في
أيام السلم وبين سكان المدن فلا تنتهى بغير خصومة ولا تنتهى الخصومة فيها
بغير شر وعناد.

ومن مقابلة النقيض بالنقيض أن نستطرد من قصة حبيب وسلمان إلى
قصة الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص اللذين تعاقبا على ولاية الكوفة في
عهد عثمان، وقد أجمع المؤرخون على فداحة الخطر الذى نجم من هذه القصة
على أمانة عثمان بين أهل الكوفة ثم بين سائر الأمصار.

كان الوليد بن عقبة والى الكوفة قد اتهم بشرب الخمر، فعزله عثمان
أمر بإشخاصه إليه وأسند الولاية بعده إلى سعيد بن العاص، فغضب نفر من
بنى أمية على سعيد لأنه غسل منبر المسجد قبل أن يخطب عليه، وعدوا ذلك
تشهيرا بالوالى المعزول، وتربصوا^(١) به الدوائر^(٢) يكيّدون له بين رعيته
ويغرون به من يلغظ^(٣) فى مجلسه.

(١) ربص بفلان وتربص: انتظر به خيرا أو شرا يحل به. والمراد هنا: الشر.

(٢) أى الهزائم.

(٣) اللغظ: الصوت والجلبة.

ونحن نقتبس من جملة المؤرخين، كالطبرى وابن الأثير وغيرهما، زبدة هذه القصة التى كان لها كل ذلك الخطر من بدء الفتنة إلى مقتل عثمان . .

وزبدة هذه القصة من مراجعها المتواترة: أن سعيدا اختار وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل الكوفة، فكان هؤلاء دخلته داخلا^(١)، وأما إذا خرج فكل الناس يدخل عليه .

وسأل عن أهل الكوفة فأطلعوه على حالهم، فكتب إلى عثمان بما انتهى إليه كما أمره، وقال له فيما قال: «إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم، والغالب على تلك البلاد روادف^(٢) ردف، وأعراب لحقت، حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها^(٣) ولا نابتها^(٤)» .

فأتاه الجواب من عثمان أن يفضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم، إلا أن يكون أهل السابقة قد تناقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، وليحفظ لكل كزله يعطيهم جميعا بقسطهم على سنة العدل والمعرفة بأقدار الناس .

وأرسل سعيد إلى وجوه القوم فقال لهم: «أنتم وجوه من وراءكم، والوجه ينبئ عن الجسد، فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة^(٥) ذى الخلة، ثم أدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين فى سمره، فانقطع الذين لا سابقة لهم ولا قدمة بعضهم إلى بعض، وجعلوا يقعون فيه وفى عثمان، وكلما لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابى أو مولى طليق أعجبه كلامهم حتى غلب الشر وفشت القالة، فكتب سعيد بذلك كله إلى عثمان على ما تعودته الولاة من إبلاغ كل كبيرة أو صغيرة إلى الخليفة منذ

(١) أى يدخلون عليه داخل بيته غير مقيدين بمكان الاستقبال . (٢) أى توابع .

(٣) أى من نزل بها . (٤) نابتها: من أهلها الأصليين .

(٥) من معانى الخلة: الفقر والحاجة .

أيام الصديق، فنادى منادى الخليفة إلى صلاة جامعة وخطبهم وتلا عليهم ما جاءه من سعيد وذكر لهم أنه يريد أن يبعث إلى العراق بمن شاء النقلة إليه من أهل السابقة، ويأذن له في أن يبيع ما يملك بالحجاز عسى أن يستعين بهم سعيد على نصيحة الشاغبين من الروادف والآتباع..

على أن سعيدا لم ينقطع عن لقاء العامة إذا جلس للناس، فحدث في بعض هذه المجالس: إن فتى غرا^(١) أثنى على طلحة بن عبيد الله فقال: ما أجود طلحة!.. قال سعيد: إن من كان له مثل بساتينه لحقيق أن يكون جوادا.. والله لو أن لى مثلها لأعاشكم الله بها عيشا رغدا^(٢).. فقال عبد الرحمن بن قيس، وهو فتى حدث: «والله لوددت أن لك ما كان لكسرى على نهر الفرات، فانتهره أناس من الحاضرين وصاحوا به: أتمنى له سوادنا! وهاج الشر بينهم وبين أهل الفتى، وسمع قومه من بنى أسد بما أصابه فجاءوا وأحاطوا بالقصر، وعاذت القبائل بسعيد فأقسم لا يغشى مجلسه أحد من أولئك الشاغبين «فقد أولئك النفر في بيوتهم وأقبلوا يقعون في عثمان»..

ونما خبر هذا الشغب إلى عثمان، فأذن لسعيد في إخراجهم إلى الشام، وكتب إلى معاوية: «أن نفرا قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانهم فإن أنست منهم رشدا فاقبلهم وإن أعيوك فارددهم على».

فلما قدموا على معاوية أنزلهم كنيس كريم، وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق. وكان يتغدى ويتعشى معهم ويحادثهم ويستخبرهم عن شكاتهم عسى أن يقنعه، فقال لهم في بعض هذه الأحاديث: بلغنى أنكم نقتم قريشا، ولو لم تكن قريش كتمت أذلة. إن أئمتكم لكم جنة^(٣) فلا تفترقوا عن جنتكم، وإن أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحملون منكم المؤونة. والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم سوء ولا يحمدكم على

(١) أى صغيرا غير مجرد. (٢) رغدا: واسعا طيبا. (٣) جنة: وقاية.

الصبر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم^(١) على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم ..

قال رجل منهم - وهو صعصعة - : أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلصت إلينا .

قال معاوية: عرفتكم الآن. وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول. ثم قال لصعصعة: أنتم خطيبهم ولا أرى لك عقلا .. أعظم ليك أمر الإسلام وأذكرك به وتذكرني الجاهلية ..

وطالت اللجاجة بينه وبينهم فأجمع رأيه على إخراجهم بعد الكتابة إلى الخليفة، وكتب إليه يصفهم ويقول عنهم:

« .. قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم، وليسوا بالذين ينكون^(٢) أحدا إلا مع غيرهم، فإنه سعيدا ومن عندهم عنهم، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير» .

وخرجوا قبل أن يخرجهم معاوية من الشام فقصدوا إلى الجزيرة ولم يعودوا إلى الكوفة اتقاء السماتة بهم، وسمع بهم والى حمص عبد الرحمن ابن خالد بن الوليد فاستدعاهم منذرا متوعدا وقال لهم:

- يا آلة الشيطان. لا مرحبا بكم ولا أهلا .. خسر والله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم. يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم. ولا تقولوا لى ما بلغنى أنكم قلتم لمعاوية. أنا ابن خالد. أنا ابن من قد عجمته العاجمات. أنا ابن فاقئ الردة. والله يا صعصعة .. لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى ..

(١) جررتهم: أى جنيتهم. (٢) نكى العدو وفيه نكاية: قتل وجرح.

ثم أقامهم شهرا كلما ركب مشاهم معه. وخافوه فاستقالوه وأعلنوا له توبتهم، وسرح أحدهم - وهو الأشتر - إلى عثمان فخيره عثمان أن يحل حيث شاء. فاختر العوده إلى ولاية عبد الرحمن.

وجرى في البصرة ما كان يجرى في الكوفة من أشباه هؤلاء الروادف، وكان في بعض قرى الولاية قاطع طريق يسمى حكيم بن جبلة العبدى يصاحب الجيش ثم يخنس^(١) عنه ويغير على أهل الذمة، فشكاه أهل الذمة ورؤساء المسلمين إلى عثمان، فكتب إلى ابن عامر والى البصرة أن يحبسه ومن كان مثله فلا يخرج من البصرة «حتى تأنسوا منهم رشدا» فحبسه وتعقب خبره، فجاءه النبأ ذات يوم أن رجلا يدعى ابن السوداء نزل عليه وأخذ يصرح له ولأمثاله بالطعن في عثمان وخلافته، فدعا بابن السوداء هذا فإذا هو عبد الله بن سبأ. يهودى من أهل اليمن يقول برجعة النبى إلى الدنيا ويظهر التشيع لعلى. فسأله ابن عامر: من أنت؟ قال: رجل من أهل الكتاب رغبت في الإسلام وفى جوارك. ثم أخرجه من البصرة لما علم من لياذه^(٢) بالمفسدين فيها. فذهب إلى الكوفة يلوذ فيها بأمثال حكيم بن جبلة فأخرج منها. وذهب إلى مصر فجعل ي كاتب من تركهم فى البصرة والكوفة، وأوى بمصر إلى حمران بن إبان وهو رجل مотор^(٣) من عثمان. كان قد تزوج امرأة فى عدتها ففرق عثمان بينهما وضربه وسيره إلى البصرة، فسعى هناك فى وقعة بين الوالى ورجل من النساك^(٤)، واقترض كذبه عليه، فأخرج من البصرة، وذهب يتردد بين الشام والحجاز ومصر، فلقه فيها ابن السوداء وأوى إليه وأدخله معه فى مكاتباته وسعائاته، وكثرت السعاية بين أهل الأمصار من الوادف وأشباههم، فمن نزل منهم بالشام أرضاه معاوية أو أخرجه، ومن تحول عنها كاتب غيره للاجتماع فى مكان لا رقابة عليهم فيه.

(١) يخنس: يتأخر. (٢) لاذ به: التجأ إليه. (٣) يقال أوتره: أدركه بمكروه.

(٤) جمع ناسك، والناسك: العابد.

وحدث أن الكوفة خلت من واليها سعيد بن العاص وخلفه عمرو بن حريث فإذا بجموع المكاتبين تلتقى فيها، وإذا بأناس منهم يشيعون في الناس أن سعيدا عائد إليهم، وأنه ذهب إلى الخليفة يريده على نقصان رزق نساتهم إلى مائة درهم، ورد أولى البلاء من المجاهدين إلى ألفى درهم، ويزعم أن الفيء من العراق بستان قريش وأنها تأخذ منه ما تأخذ وتدع ما تدع. وطفق^(١) دعاة منهم يذيعون هذه القالة أيام الجمع والناس مجتمعون في المسجد فيستخفون ألبابهم^(٢)، ولا يستمعون لذي رأى يبطل لهم ما يذاع على كذب بينهم، وتصدى عمرو بن حريث - خليفة سعيد على الكوفة في غيابه - لتفنيد ما زعموا، فقام على المنبر في يوم الجمعة ينصح لهم ويوصيهم بالطاعة ولا من سميع.

قال القعقاع بن عمر: «أترد السيل على أدراجه؟ هيهات، والله لا يسكن الغوغاء إلا المشرفية^(٣) ويوشك أن تنتضى^(٤) ويعجون^(٥) عجبج العيدان، ويتمنون ما هم فيه اليوم فلا يرده الله عليهم أبدا. فاصبر» قال عمرو: «اصبر». وتحول إلى منزلة لا يأمر ولا ينهى.

هذه بداية تتبعناها إلى نهايتها. بدأ في أوائل خلافة عثمان وتبعناها إلى نهايتها قبيل مقتله، وما يبلغ من خطب هذه الغاشية أن تفضى إلى مقتل رئيس دولة، لولا شذوذ في طبيعتها خرج بها عن سوائها^(٦)، وتعدى بها أطوارها..

نعم.. هي غاشية هان خطبها لو أنها صادفت أميرا يعالجها بنظام الإمارة، وهان خطبها لو أنها صادفت واليا مسئولا عن نظام ولايته مطلق اليد في دفع شواجر الفتنة عنها، وقد عالج كل وال من ولادة ذلك العهد ما وقع

(١) أى جعل. (٢) الألباب: العقول. (٣) نوع من السيوف.

(٤) نضا سيفه وانتضاه: سله. (٥) العج: رفع الصوت. (٦) أى حد اعتدالها.

منها فى ولايته، فاستطاع أن يصرف عنه غائلتها^(١): عاجلها معاوية بنفى القائمين بها، وعاجلها عبد الرحمن بن خالد بتأديب دعائها، ولم يستفحل^(٢) شرها فى الكوفة إلا بعد أن غاب عنها واليها سعيد بن العاص، ووقف دونها خليفته عمرو بن حريث مكتوف اليدين وهو بعيد عن مشورة عثمان ومشورة أمير الولاية سعيد، ولو كان له أن يسكنها بالسيف كما قال القعقاع لما كان تسكينها كثيرا عليه، ولكن القعقاع نفسه لم يشر عليه بامتماق السيف على توقعه أن يعج^(٣) عجيجها، وإنما أشار عليه أن يصبر فصبر، ولزم بيته ولا يأمر ولا ينهى.

لقد كان خطب الغاشية هينا لو أخذها الآخذون بسُلطان الإمارة أو بسُلطان الولاية، ولكنها قد جرى الحساب فيها على سنة الخلافة فى عهد ولا هو بعهد خلافة ولا بعهد ملكة، تتقاصر فيه حقوق الخليفة ولما يتوطد^(٤) فيه حق الملك، وهذه هى النكبة الكبرى فى صميمها.

وفى أمثلة الشواجر التى أشرنا إليها فى عهد عمر وعهد عثمان كذلك مجال للتفرقة بين طريقة الخلافة وطريقة الملك والإمارة فى سياسة هذه الشؤون، أو فى سياسة جميع الشؤون.

كان عمر أقوى من عثمان ولا مرأى فى ذلك، وتقدم أنه بدل ثلاثة من الولاية على الكوفة غير وال رابع كان يهم بأشخاصه إليها قبل مقتله، وشوهد مهموما مكروبا على قدرته التى لا تضيق بأزمة من أزمات السلم والحرب واضطلاعه بأعظم الأعباء التى عرضت له أيام خلافته: مائة ألف لا يرضون عن وال ولا يرضى عنهم وال، وهذه معضلة ثقلت عليه حتى أحس ثقلها كل من كان يعرفه ويلقاه فى إبان شكاياتها ومنازعاتها.

(١) غائلتها: أى دواهيها.

(٢) أى يعظم وكبر.

(٣) العج والعجيج: رفع الصوت، وعجت الريح وأعجت: اشتدت وأثارت الغبار والدخان.

(٤) يتوطد: يشبت.

فما بال أزمة كهذه تثقل على الرجل الذى نهض بأفدح الأعباء وصغرت
فى عينيه مخاوف الدنيا ومطامعها؟ ..

أتره خاف من ثورة أصحاب الشكاية؟

لو كان هذا ما يخشاه لما أعضله ولا أعياه أن يعد له عدته، ويفرغ منه
على النحو الذى يريده . .

أم تره خاف على سلطانه، أو خاف على حياته، أو خاف على مصلحة
من المصالح البرى أو الصغرى تعنيه غير مصلحة الإسلام والمسلمين؟

كلا . فما فى شىء من ذلك ما يخيفه، وإنما أعضله من أمر تلك
الشكاية مخافة أمر واحد: مخافة الظلم أن يقع منه على شاك له حق فى
شكاة^(١) . .

ذلك كل ما أعضل على عمر من شكايات أهل الكوفة، ولو لم يكن
حساب نفسه على الظلم أعضل من كل معضلة لما كان فى شكايات القوم ما
يكربه ويقلق نومه وغيم على وجهه حتى يلمحه من ينظر إليه من عارفيه . .

ولو أن عمر على يقين من افتراء^(٢) الشاكين لما أهمه أن يسخطهم
ويخسر ثناءهم، ولا أعياه أن يؤدبهم ويردهم إلى طاعة وليهم، وإنما الشكاة
بالحق هى التى تزعجه وتكربه، ويشغله منها أن يبرأ من مظنتها غاية جهده .
فإن عرف وجه الحق فما يبالى بعده من شكا أو ادعى ولو زعم أنه يدعى
باسم من شاء من الأكثرين أو الأقلين، وعلى هذا جرت سياسته وسياسة أبى
بكر، وعلى هذا كان يقضى بين أبى بكر والشاكين منه حيثما سمعت الشكاية
من الخليفة الأول، وبخاصة فى مسائل الأعطية والأرزاق .

وكان رزق أبى بكر الصديق حين استخلف خمسين ومائتى دينار فى
السنة، وشاة فى كل يوم يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها . فلم يكن يكفيه

(١) أى شكوى . (٢) الافتراء: الكذب والاختلاق .

ذلك ولا عياله، فخرج إلى البقيع يتجر، وجاء عمر فإذا هو بنسوة جلوس فسألهن: ما شأنكن؟.. قالت بعضهن: «نريد خليفة رسول الله يقضى بيننا» فانطلق يطلبه فوجده فى السوق، فأخذ بيده وجذبه ليذهب به إلى حيث تنتظره النسوة. قال أبو بكر: «لا حاجة بى إلى إمارتكم. رزقتمونى ما لا يكفينى وعيالى» وسأله عمر عما يكفيه فقدره بثلاثمائة دينار فى السنة وشاة كل يوم لا يؤخذ منها شيء. وجاء على وهما على هذه الحالة فلم ير ضيرا^(١) فى الزيادة ووافقه عمر بعد مراجعة. قال أبو بكر: «أنتما رجلان من المهاجرين لا أدرى أيرضى بقية المهاجرين بما رضيتماه أم لا». ثم صعد المنبر واجتمع إليه الناس فقال:

«أيها الناس!.. إن رزقى كان خمسين ومائتى دينار وشاة يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها، وأن عمر وعليما كمالى ثلاثمائة دينار والشاة. أفضيتم؟..».

فأجابة المهاجرون: «اللهم نعم.. قد رضينا». وصاح صائح من جانب المسجد فإذا هو أعرابى يقول: «لا والله ما رضينا. فأين حق أهل البادية؟».

ولم يكن عسيرا على عمر ولا على أبى بكر أن يعلما أنها صيحة لا يصغى إليها. فمن التنطع^(٢) أن يمنع رزق الخليفة الذى أقره ذوو الرأى من المجاهدين فى انتظار سؤال البادية من حضرهم منها ومن لم يحضر، وكان جماع قولهم: إن المهاجرين إذا ارتضوا شيئاً فإنما الغائبون من أهل البادية تبع للحاضرين ولا يشتكى من ذلك مشتك بالحق كائنا ما كان ادعاؤه وكائنا من كان المدعون على غراره^(٣)..

فلا حساب للخليفة إذا جاءتة الشكاية غير حسابه لضميره وخشيته أن يكون قد ألم أحدا، أو قمع شاكيا له مظنة صدق فى شكايته، وغير ذلك

(١) أى ضررا. (٢) التنطع: أى المغالاة. (٣) أى حاله ومتواله.

حساب الملك والإمارة، فإنهما بين خوف الفتنة وخوف الضرر على سلطان صاحب السلطان، ويأتى الإصاف فى المرتبة بعد النظام والمصلحة إن كان له حساب..

ولقد شكنا من الزكاة أيام الخليفة الأول أكثر أهل الجزيرة العربية واستدعى قتالهم جهدا أكبر من جهد القتال مع الأكاسرة والقياصرة. فما وقع اليقين فى نفس الخليفة أنه على الحق وأن الشاكين على الباطل حتى أقدم على مكاره الحرب الداخلية وأقدم معه سائر المهاجرين والأنصار، ولو تكرر هذا لتكرر علاجه بما يقتضيه فى غير مبالاة بكثرة الشاكين وقلّة المجاهدين.

المثل الآخر الذى تفرق فيه خطط الخلافة وخطط الملك من جانب الرعية، قبل جانب الرعاة، هو مثل الخلاف بين القائدين سلمان وحبيب فى حروب أرمينية. فقد وجد النزاع على الرئاسة ووجد التنافس بين الأتباع، ولكنهما وجدا فى موقف جهاد، فأوحى الوقف إلى المتنازعين والمتنافسين خير ما يصنعون بغير حاجة إلى مشورة الخليفة، وهذه حادثة من حوادث عهد عثمان الذى اشتبكت فيه معالم الخلافة ومعالم الملك وغلبت فيه معالم الملك على مطالب المعيشة أيام السل بعيدا من حمية الجهاد ومن خطر العدو المتحفز للانتقاض، وقريبا من شهوات الدنيا وبطالة الفراغ..

وقضى للخليفة الثالث، باتساع دولته ودرء^(١) الأعداء عنها. أن يتولى أصعب خلافة فى صدر الإسلام.

كانت ثورة الفرس والروم والخزر والترك أول صدمة تلقاها، وأكبر بها من صدمة يتلقاها صاحب دولة فى أول حكمه، ولكن ظفر بها وجاوزها بالدولة سليمة منيعة^(٢) فأسلمه الظفر إلى الصدمة الكبرى، وهى صدمة الزلازل النفسية اتى امتحن بها رعاياه فى بحبوحة السلم والرخاء، وكانت

(١) درء: أى دفع. (٢) أى قوية.

كلها طورا جديدا فى حياة أولئك الرعايا، فلا هم رعايا خلافة ولا هم رعايا مملكة، متراوحين هنا تارة وهناك تارة أخرى، بين بين، على غير نظام متبع فى حالة واحدة أو فى الحاليتين.

وقد أتينا من قبل على فارق بين الخليفة والملك فى محاسبة النفس على شؤون الرعية، ونأتى الآن على الفارق الأصيل أو الفارق الشامل بين النظامين، وهو الفارق بين الثقة التى لا تحتاج إلى حماية وبين السلطة التى تحمى نفسها..

فالخليفة يعمل ما يشاء فى ظل الثقة به والاطمئنان إليه، يعمل اليرم ما ينقضه غدا ولا ملامة عليه، ما دام عمله اليوم والأمس لغيره لا لنفسه، وللمصلحة العظمى التى لا يناله منها نصيب غير نصيبه المقدور، وقد يرضى هو لنفسه بأقل من ذلك النصيب.

رعية تثق بخليفتها يثق برعيته، ولكنه لا يبالى إلا يثقوا به إن كان على طمأنينة بينه وبين ضميره، وبينه وبين الله على السنة الإلهية التى يعملها من أحكام دينه.

أما الملك فالسلطة هى قوامه عند ذويه سواء نعموا بالثقة طواعية، أم خذلتهم هذه الثقة عن إكراه وكراهية.

وقد وصلت الخلافة إلى عثمان وهو أحوج ما يكون إلى هذه الثقة، وهى أعصى ما تكون عليه.

سبقه بالجذر من علية الناس خليفتان بلغت ثقة العلية والدهماء^(١) بهما غاية مبلغها، فأبو بكر كان يحذر الدنيا على أولئك العلية، وعمر كان يسلمهم منها ما يأمن عاقبته عليهم، ولا يقدرّون على مخالفتها، لأنهم لا يشكون فيه، ولا الشك فيه مقبول منهم إذا هم قبلوه.

(١) الدهماء: عامة الناس وجماعتهم.

أما هؤلاء العلية فهم فى خلافة عثمان منافسون ونظراء وخلافته بينهم على شرط معرض فى كل لحظة للتأويل والحساب العسير . .

وأما سواد الناس فقد شغلوا أولا ثم فرغوا من الشغل للبطالة والملاحاة وكانهم ورثوا من بيزنطية سلطانها ومعه محاك الجدل البيزنطى الذى تضرب به الأمثال، ولا يؤمن سواد الناس مع البطالة والفراغ للقليل والقال .

وقد كانت سياسة أبى بكر وعمر أن يستبقيا العلية عندهما، ويرسلا الجند والقادة على قدر إلى ميادين الجهاد، وكان عمر يقتضب^(١) الولاية على الولاة مخافة - كما قال - من أن يحمل فضل عقولهم على الناس .

أما سياسة عثمان فقد اختلفت باختلاف الأحوال: سياسة عثمان كانت ترمى إلى إطلاق العلية فى الآفاق، إرضاء لهم، وتوسلا بمقامهم بين الدهماء فى كل قطر إلى تسديد النصيحة وحسن القيادة واتباء الفوضى، وهو اجتهاد منه، له ولا ريب جانبه من الصواب . .

وعزت^(٢) عليه الطمأنينة إلى الولاة مع الفراغ للعالم بعد الجهاد، فاختار للولاية أناسا من ذوى قرابته سبقت لهم ولاية فى عهد الخليفين السابقين، عسى أن يصدقوه العون بحكم القرابة إن لم يصدقوه العون خالصا لوجه الله . .

ولما اضطر إلى هذه الخطة حاسب ضميره فعمل على تدارك الضرر منها، فذلك حين وفد الوفود لكل مصر من الأمصار عليه وال من ولاته الأقربين، فهم يعيشون فى أمصارهم، ويحضر منهم من يشاء فى موسم الحج، ليرجع إليه بما يراه موضعا للمراجعة من أحوال مصره، وهذه خطته التى آثرها للطمأنينة إلى ولاته والطمأنينة على رعاياه .

(١) أى يختصر مدتها . (٢) عز الشىء فهو عزيز: أى قل فلا يكاد يوجد .

والذى شاع عن عثمان - وما أسهل الإشاعة - أنه كان يبالى (١) ذوى الثراء ولا يبالى المقترين (٢) والضعفاء، والذى كان يحدث منه فعلا أنه يغضب الطامعين ويحمى المطموع فيهم من أهل الذمة وأهل الحاجة والمترية (٣)، فمن أجل إبل الصدقة غضب الغاضبون حين حمى لها المرعى، وزاد فى مرعاها على حسب زيادتها، ومن أجل أهل الذمة غضب الشطار (٤) من قبيل حكيم ابن جبلة، لأنه أدبهم وأمر بحبسهم ونهاهم عن أموال أهل الذمة وهم يحسبونها حلالا مباحا لمن يسطو عليها، وكان رهط المبعدين من الكوفة إلى الشام يحاور معاوية فى هذه الأموال، فينهاهم عنها، ويكتب عنها إلى عثمان أنهم «لا يتكلمون بحجة، وإنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة».

فأما الرزق الحلال فقد فرض لأصحابه ضعف ما كانوا يأخذونه من الأعطية يوم تولى الخلافة، ولم يفعلها سياسة بل فعلها إيمانا بالصواب فى هذه الزيادة. وقد كان هو فى عهد الفاروق أول من قال بكثرة المال وأشار عليه برصد الأسماء وتوفية كل ذى حق حقه من العطاء خشية النسيان والتكرار..

وقد تعود المؤرخون أن يقسموا عهد عثمان قسمين: قسم الصلاح والرضى، وقسم الخلل والشكاية، وهم على صواب فى تقسيمهم هذا إن لم يصب منهم من قال: أنهما قرينان لأيام الكهولة وأيام الشيخوخة فى حياة عثمان..

فالواقع أن عثمان كان شيخا جاور السبعين على أرجح الأقوال فى كلا القسمين، ولكن الفرق الصحيح بين السنوات الأولى والسنوات الأخيرة من عهده، أن الناس كانوا فى شاغل بدفع الأعداء فى السنوات الأولى، وأنهم فرغوا للجدل والملاحاة فى السنوات الأخيرة، وأن اتهام الولاة أيسر من اتهام

(١) أى يهتم بهم. (٢) الذين ضاقت عليهم النفقة. (٣) المترية: المسكنة والفاقة.

(٤) الشاطر: من أعيأ أهله خبثا.

القادة فى إبان^(١) القتال، وقد صارت الرئاسة كلها إلى الولاية بعد المشاركة بينهم وبين قادة الحروب.

ولم يأت هذا التغيير فى أطوار النفوس من جانب واحد ولا من الرعية وحدها دون راعيها، فحسب طالب الحقيقة أن يعلم أنه لم يأت كله من جانب عثمان، وأن الرعية تغيرت فلم تصبح رعية خليفة، وهى تحاسب ولى أمرها بميزان الخلافة.

أما أن عثمان أنه لم يخل من الأموية ولم يكن أمويا «كفاية».. فمن خلاله الأموية حب القرابة فهو مبالغ فى إثارة لذوى قرباه. ومن خلاله الأموية تلك «الطبيعة العملية» التى لم يكن للأسرة فكاك^(٢) منها..

لقد كان أبو سفيان يخلط بين النبوة والملك فيقول للعباس: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما».

وكان ينظر إلى مال الفىء بين يدى رسول الله، فيقول للرسول - عليه السلام - : «لقد أصبحت أكثر قریش مالا».

وروى عن الحسن أن أبا سفيان دخل على عثمان - رضى الله عنه - حين صارت الخلافة إليه فقال: «قد صارت إليك بعد تيم وعدى، فأدرها كالكرة واجعل أوتادها^(٣) بنى أمية، فإنما هو الملك ولا أدرى ما جنة ولا نار». فانتهره عثمان وأخرجه مطرودا من عنده.

إن عثمان لأنزه نفسا وأطهر عقيدة من مثل هذه النزعة الدنيوية، ولكنه سلم من شر ما فى «الأموية» ولم يسلم من ميراثها بأجمعه، فكانت له نظرة إلى الإمامة قاربت أن تكون نظرة إلى الملك، وكان يقول لابن مسعود كلما

(١) وقت. (٢) فكاك: أى خلاص. (٣) أوتاد الأرض: جبالها، وأوتاد البلاد: رؤساؤها.

ألح عليه في المحاسبة: «مالك ولييت مالنا؟». . قال في خطبته الكبرى يرد على من أخذوه بهباته الجزيلة^(١) في إيتاء ذى القربى على رواية الطبرى: «فضل من مال، فلم لا أصنع في الفضل ما أريد، فلم كنت إماماً؟» .

فقد كاد في هذا المقال أن يرفأ^(٢) الخلافة برقعة من الملك ومالت به طبيعة العصر كله إلى بقية من النزعة الأموية فكاد الملك والخلافة لديه يلتقيان في حساب الأموال .

على أنه مع هذا التوسع في فهم حقوق الإمامة لم يثبت أنه أنفق المال في غير مصالح الأمة كما يقدرها ويوافقه على تقديرها الكثيرون من المحدثين الذين نشأوا في عصر الاقتصاد وتقسيم الموارد والمصروفات على حسب مرافق الدولة، وثبت على التحقيق أنه أنفق من اله الخاص - قبل الخلافة وبعدها - لاستصلاح أمور عامة من خصائص بيت المال، وقد تخرج أشد التحرج من إنفاق المال على حرس يحميه في أسوأ أيام الفتنة، ولو أنه فعل لما خالف بذلك سنة الحكم في نظام من النظم الحكومية، وكانت له «سياسة اقتصادية» يلاحظ فيها تدبير المرافق العامة وتيسير التجارة والعمارة، ومنها إصلاح ميناء جدة وتمهيد الطرق وإقامة الشرطة في المخافر وتنظيم الأسواق .

ومهما يقل القائلون عن ترخصه في العطاء وبذل الرواتب من بيت المال فلا قول لأحد في حرمة الحياة عنده حتى فيما يخشى منه الجور على حياته، فما طأوعه ضميرة قط على إيقاع حكم الموت بإنسان ممن استحقوا هذا الحكم بالشغب والعصيان، ومن لأمه في هذا الباب فإنما يلومه لأنه أفرط في الرحمة والأناة، ولا يلومه لأنه قسا فضلا عن الإفراط في القسوة .

والمشقة التي يلقاها المؤرخون في هذا الصدد عظيمة متعبة، لأن الغالب في المؤرخين أنهم يستسهلون الرأي كلما كتبوا عن رجل اشتهر بصفة من

(١) الجزيلة: العظيمة والكثيرة . (٢) أى يصل ويضم .

الصفات، وهم على دأبهم هذا قد يستسهلون الرأى فى تقدير سياسة عثمان بعد السنوات الأولى من خلافته على الخصوص؛ فما كان عملا وتدييرا فليس أسهل من إسناده إلى أعوانه وما كان توانيا وتفريطا فليس أسهل من إسناده إليه، وأن أسندوه إليه ليقولوا أنه غلب عليه . .

وتحضرنى فى هذا المقام مساجلة^(١) بين بعض الصحاب سمعتها عن ضعف عثمان، وتسيير الناصحين له من حزبه ومن غير حزبه، وإحدى الدلالات على ذلك أنه تاب ثم عدل عن التوبة مرات فى عامه الأخير .

والأمر الذى نسيه أصحاب هذه الدلالة أن التوبة شىء لم يطلب قط من أحد فى تلك الآونة إلا استجاب إليه، وما قيل لأحد قط: تب إلى الله فأجاب على ذلك بغير التوبة والاستغفار، فما كان منهم من أحد يرى أنه غنى عن الاستغفار وتكفير الذنوب فى وقت من الأوقات، أو كان يستعلى عن الوقوف أمام الله موقف التوبة والندامة، وما كانت توبات عثمان إلا من هاذ القبيل كلما دعى إليها فى أيامه الأخيرة، فإنما هى توبة لله وأمام الله، ولا عليه أن يعيدها فى اليوم مرات بعد مرات .

فمن تسيير المؤرخ على نفسه أن يحيل عمل عثمان وتدييره على الأعوان والنصحاء، وأن يحيل التوانى والتفريط إليه أو إلى غلبة الأعوان عليه، ولا سيما المسئول الأكبر فى رأى الأكثرين عن أخطاء عثمان، ابن عمه مروان . .

فما كان لمروان هذا من القوة ما أسبغه^(٢) عليه المداحون بعد قيام الدولة الأموية، ولم تكن له هذه القوة حتى فى مطامع الملك وهمم السيادة والرئاسة، فإنه كان يزاحم معاوية فلم يستطع أن يبلغ معه كثيرا ولا قليلا، وراح يحرض عمرو بن عثمان ليناوى^(٣) معاوية ويقول له: إنه لم يأخذ الخلافة إلا باسم أبيك ثم ينزوى^(٤) ولا يجسر^(٥) على الظهور . . ولم يفارقه

(١) المساجلة: المباراة والمفاخرة. (٢) أى توسعوا. (٣) ليناوى: ليعادى.

(٤) ينزوى: يتنحى ويتعد. (٥) جسر على كذا: أقدم.

هذا الخمول^(١) بعد موت معاوية وابنه يزيد، فكاد أن يبايع عبد الله بن الزبير بالخلافة لولا النزاع بين اليمانية والقيسية في الشام..

وقد أودى^(٢) حمقه بحياته بعد أن صارت الخلافة إليه، ذلك المصير الذي لا فضل له فيه. فقد خشى أن يكبر خالد بن يزيد بن معاوية فينازعه سريره، فلم تهده حيلته إلى عمل يحتاط به لهذه المنازعة غير أن يتزوج أمه ليصغره ويلحقه بأتباعه، وأمعن في هذ الحيلة لما كبر خالد فقال له على مسمع من أشراف القوم: مالك ولهذا يا ابن الرطبة.. فكان فيها حتفه، وقيل أن خالدًا أخبر أمه فقالت له: لا يعلمن أحد أنك أخبرتنى، ثم وضعت على رأس مروان وسادة ولم ترفعها حتى مات.

فمروان هذا ليس بالعون الغالب الذي لا يخالف، وليس هو على الأقل بالذي ينسب إليه الرفق في تسيير الناس لسلبتال متطوعين، أو الرفق في محاسبة الخصوم والثائرين أو بذل العطاء لمن ينافسهم وينافسونه من رؤساء بيت العاص أو بيت حرب في بني أمية، وغاية شأنه أنه المأمور الذي لا يستعاض عنه بمن هو أنصح منه وأقدر على الطاعة وأعرف بما كان وما هو كائن من أخبار العاصمة وأحوال الولايات لطول المراسلة والمعاشرة، ومن كان يحسب أن مشورته السيئة هي علة العلل في محنة عثمان، فعليه أن يلغى هذه المشورة ويفترض أنه لم يقل بها ولم تسمع منه ثم لينظر ماذا يقدم هذا أو يؤخر من أزمة الحكم ومن فاجعة عثمان..

إنما المحنة كلها: أنه زمن كان يحتاج حينًا إلى ثقة الخلافة فلا يجدها، ويحتاج حينًا آخر، أو في الحين نفسه، إلى سلطة الملك فلا يجدها، ولن يسلم حكم يحتاج إلى سند الثقة في موضعه أو إلى سند السلطة في موضعه، فلا يجد هذا ولا ذلك.

(١) حمل ذكره وصوته خمولا: خفى، وأخمله الله تعالى فهو خامل: أى ساقط لا نباهة له.

(٢) أودى الرجل: هلك.

مصحف عثمان

ينفرد اليوم بين أعمال عثمان عمل جليل يوازنها جميعا، يذكر باسمه حيث يذكر المصحف الشريف، ويعلمه من يعلم أن المصحف «العثماني» منسوب إليه . .

فقليل من الناس يعلمون اليوم أنباء الفتوح التي يفتحها عثمان، وأنباء الغارات التي ردها عثمان، ومنها ما تلبس^(١) فيه أسانيد المؤرخين، فيختلط السند الواحد بين البلد والبلد وبين السنة والسنة، ولا يعرف القول الفصل في ذلك كله إلا بعد معارضة ومقابلة بين الأنباء والروايات لا يشتغل بها أحد غير المختصين . .

أما عمل عثمان في المصحف فهو مائل معلوم حيث يقرأ المصحف وحيث يقال: هذا مصحف عثمان، وكل مصحف اليوم هو مصحف عثمان، فلم تكن كلمة «المصحف» نفسها معروفة علما على الكتاب الذي يجمع أي القرآن الكريم. فعرف المصحف تارة و«الإمام» تارة منذ سميا باسميهما في أوائل خلافة عثمان.

وليس من مباحث هذا الكتاب تاريخ جمع القرآن منذ جمع لأول مرة في حياة النبي ﷺ، وإنما نذكر منه ما يذكر في تاريخ عثمان - رضوان الله عليه -، وهو باتفاق الخالفين بعده ألزم ما كان لازما من أعمال العناية بحفظ القرآن الكريم.

جمع القرآن الكريم في حياة النبي ﷺ بعد أن كان مفردا في جريد النخل وصفائح الحجارة والعظام والجلود والرقاع. ولم يرتب يومئذ على حسب السور والموضوعات، وفي ذلك يقول الشيخ محمد العاقب الشنقيطي من أرجوزته المشهورة:

(١) التبس عليه الأمر: اختلط واشتبه.

لم يجمع القرآن في مجلد

على الصحيح في حياة أحمد

للأمن فيه من خلاف ينشأ

وخيفة النسخ بوحي يطرأ

وكان يكتب على الأكتاف

وقطع الأدم واللخفاف

فلما كانت أيام أبي بكر قال له عمر: إن أصحاب رسول الله ﷺ باليمامة يتهافتون تهافت الفراش، وإنى أخشى ألا يشهدوا موطننا إلا فعلوا ذلك وهم حفظة القرآن.. فهلا جمعته وكتبته؟.. فنفر أبو بكر أن يفعل ما لم يفعل رسول الله. ثم أرسل أبو بكر إلى كاتب الوحي زيد بن ثابت فقال له مشيرا إلى عمر: «إن هذا قد دعانى إلى أمر فأبيت^(١) عليه وأنت كاتب الوحي، فإن تكن معه اتبعتكما، وأن توافقنى لا أفعل» وتراجعا فى الأمر حتى قال عمر: «وما عليكما لو فعلتما ذلك؟» فنظرا مليا^(٢) ثم قالوا: «لا شىء!».

فجمعت الآيات وروجع الحفاظ فى كل آية، ولم يشتغلوا يومئذ بنسخ ما جمعه وإرسال النسخ إلى الأمصار، لأنهم تبعوا الآيات لجمعها لا لمخافة الاختلاف فى قراءتها.

ثم حدث هذا الاختلاف بعد تفرق المسلمين فى الأمصار على أيام عثمان، وبلغ من ذلك أن المعلمين والصبية كانوا يقتتلون فى المكاتب لأن الصبية يرجعون إلى آبائهم فيسمعون منهم غير ما سمعوه من معلمهم، وعاد حذيفة بن اليمان من قتال أرمينية فلم يدخل بيته حتى أتى الخليفة فقال له:

(١) آيت: رفضت. (٢) مليا: أى وقتا طويلا.

«أدرك الناس يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا في الكتاب» فلم يتوان^(١) عثمان بقية يومه، وأرسل إلى السيدة حفصة يطلب النسخة التي أودعها أبوها عندها قبيل وفاته وقبل أن ينتخب الخليفة بعده، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها، ثم عارضها^(٢) على ما يحفظه وه يحفظ القرآن كله، وعارضها على ما يحفظه سائر الصحابة فخلصت له النسخة المتفق على قراءتها وترتيب آياتها، فلم يحجم^(٣) بعد ذلك عن أمر كان غيره خليقا أن يهابه، مذ رأينا أن أبا بكر قد تردد قبل أن يجيب عمر إلى مشورته وليس فيها أكثر من مجرد التفكير في جمع الآيات المتفرقات . .

أمر بعد حصول هذه النسخة لديه فأباد^(٤) كل ما عداها إحراقا ومحوا، وأخذ «العسب واللخاف والجلود» التي لم تختلف ولم تجتمع على ترتيب فدفنها بين القبر والمنبر، وأرسل من «المصحف» كما جمعه نسخا إلى الأمصار يعتمدونها ولا يقرأون في غيرها.

عمل من أخلق^(٥) الأعمال أن يوصف بأنه «عمل عثمانى» في الإقدام عليه وفي أثره . .

فهذه الجرأة أحق شيء أن يلتفت إليه من كانوا يحسبون أن صفة الرحمة أو صفة الطيبة تحجب الشجاعة وتثنى صاحبها عن تبعته إذا آمن بها . .

وهذا العمل - في اختلاف تقديره وأثره - مثال من أعمال عثمان كافة. إذ كان معدودا عليه من أكبر السيئات، ولم تبق لعثمان حسنة أعظم منه في تاريخ الإسلام.

(١) تواني في الأمر: قصر. (٢) عارضها: قابلها.

(٣) أحجم عن الشيء: كف أو نكص هية. (٤) أباد: أهلك. (٥) أى أجدر.

النهاية

قلنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب: «إن الصعوبة الكبرى أننا فى هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منهما إلى أسبابه وعوامله ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الأسباب والعوامل، فهذا الحادثان هما: التطور الاجتماعى ومقتل عثمان - رضى الله عنه - وأسباب هذا لا تكفى لتعليل ذلك وليس من الحتم أن تؤدى إليه».

ومقتل عثمان لا يوصف بأكثر من أنه «مشاغبة دهاء» لم تجد من يكبحها..

أما التطور الاجتماعى فلا بد من التفرقة فى تعليله بين لغط الألسنة فى حينه وبين البواعث الحقيقية التى عملت فيها عملها الفعال ولم تعمل فيه بداهة بألسنة اللاغطين فى ذلك الين.

إنهم لغطوا يومئذ بسيادة قريش، ولغطوا بالأموال التى أغدقها ولاة الأمر على الأنصار والأشياء، ولغطوا بإيثار الصنائع وذوى القربى..

ولم يكن شىء من هذا اللغط علة للتطور الاجتماعى الذى بدأ بعد دعوة الإسلام وانتهى بقيام الدولة الأموية.

فالذين شغبوا على عثمان جاءوا من البصرة والكوفة ومصر لىبايعوا واحدا من ثلاثة هم: الزبير وطلحة وعلى، وكلهم من قريش.

ودولة بنى أمية قامت بعد ذلك وهى دولة قرشية غالية فى عصبيتها.

والذين ثاروا على بنى أمية إنما ثاروا باسم بنى هاشم وهم قرشيون، ومن بنى هاشم قامت دولة العباسيين ودولة الفاطميين.

وبعد نحو مائة سنة من مقتل عثمان قام بالأمر فى الأندلس «صقر

قريش» عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، فبايعه العرب والبربر لأنه من سلالة قرشية..

فلا يكفي أن يلغظ بالنقمة على قريش سامرون في مجلس أو لاغظون في طريق. ليقال أن التطور الاجتماعي أيام عثمان إنما كان مداره على الضجر من قريش والرغبة في الخلاص من سيادتها.

وقد غلا الأمويون في العصية كما غلوا في كسب الأنصار والأشياع ببذل الأموال وإسناد الولايات، فوطدوا بذلك ملكهم وقهروا خصومهم، ولم يقل منهم أحد من جراء ذلك كما قتل عثمان.

كان خراج السواد في عهد معاوية خمسين مليون درهم ومعها مثلها من هدايا النيروز والمهرجان فاحتجها^(١) لنفسه وأنفقها في سبيل سلطانه ودولته.

ووهب خراج مصر كلها لعمر بن العاص جزاء له على معاونته إياه، وهو يربى^(٢) على عشرة ملايين من الدراهم، وجعل عطاء الحسن والحسين مليوني درهم وكان عشرة آلاف درهم في عهد عمر بن الخطاب.

واقضى يزيد آثار أبيه فسأل عبد الله بن جعفر حين قدم عليه: «كم عطاؤك؟» قال: «ألف ألف درهم» قال: «قد أضعفناها لك». فقال له عبد الله: «فذاك أبي وأمي وما قلتها لأحد قبلك» فضاعف عطاؤه ثانية. ثم خرج عبد الله فقال جلساء يزيد له: «أتعطي رجلا واحدا أربعة آلاف ألف درهم؟» فقال لهم: «ويحكم! إنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين، فما يده فيها إلا عارية!».

وهذه الهبات على عهد الدولة الأموية ربما بلغت في اليوم الواحد ما لم تبلغه هبات عثمان في سنوات، وأكثر هبات عثمان من خاصة ماله، وليس فيما وهبه من بيت المال عطاء واحد لم تكن له صلة بعمل من أعمال الفتح والجهاد...

فإذا كان الناس قد شغبوا على عثمان فلغظوا بسيادة قريش. أو لغظوا

(٢) أي يزيد.

(١) احتجج المال: ضمه واحتواه.

بالهبات والعطايا فليس هذا اللغظ هو حقيقة البواعث والقوى التي عملت في التطور الاجتماعى وانتهت بقيام الدولة الأموية على دعائم من سيادة قريش وتقريب الأنصار والأشباع.

إنما تطور المجتمع الإسلامى بعد أيام الدعوة النبوية لأن الدعوة النبوية قد رفعت مجتمعها إلى الأوج الذى لا تقوى النفوس البشرية على مداومة البقاء فيه، ولو لم تتغير أحوال المعيشة بإقبال الدنيا واتساع الفتوح. فإذا اتفق على النفس البشرية عسر البقاء فى ذلك الأوج وفتنة المعيشة معا فلا بد من تطور المجتمع حالا بعد حال.

وقد يسمى هذا التطور انقلابا من قبيل الترخص فى التعبير. أما حقيقته فهى نقيض الانقلاب: حقيقته أنه رد فعل للانقلاب العظيم الذى طرأ على حياة الأمة العربية من أثر الدعوة النبوية. فارتفعت مع تلك الدعوة شأوا^(١) لا طاقة للنفوس البشرية بالدوام عليه. وثابت إلى طبيعتها بعد سكون تلك الوثبة وغنمت منها القيم الجديدة التى دخلت فى تقدير الرعاية والرعايا وحسبت فى موازين الأخلاق والآداب، فأما دوام الغيرة الروحانية سنوات وأجيالا على قوة واحدة فذلك ما ليس فيه مطمع لطامع. وليس له سابقة ولا لاحقة من وقائع التاريخ.

هذا التطور الاجتماعى هو أحد الحادثين المختلفين اللذين يتلاقيان فى سيرة عثمان، وفحواه التحول مع الزمن من وثبة النبوة إلى ثقة الخلافة إلى سلطة الملك. أيا كان القول فى سيادة قريش وتوطيد الملك بالعصية والهبات..

أما الحادث الآخر فلا صفة له أكثر من صفة المشاغبات التى يجمع بها الدهماء، ولا اختلاف بينها وبين المشاغبات التى تعمل فيها الأغراض

(١) شأوا: أى غاية.

الصغيرة، والغرائز الهوجاء^(١). والدعاوى المملقة، والصيحات التي تقبل بغير تمحيص^(٢)، وتنطلق إلى غير مقصد وعلى غير هداية..

وأساس البلاء كله البطر على الحقوق التي كسبها من الإسلام ومنها حق خولهم^(٣) إياه عثمان، حين وفد الوفود، وندب طوائف منها للقاءه في موسم الحج كل عام لإبلاغه ما يشكونه من الولاة وما يطلبونه إليه، وقد رأينا أنهم استسهلوا الشكاية من العمال من أيام عمر. ثم زادها سهولة عليهم أنهم استطاعوا في عهد عثمان أن يقدحوا^(٤) في انتخابهم ويشككوا الناس في كفايتهم للولاية لولا قرباتهم من الخليفة. وليس أدل على وهي^(٥) الأسباب الحقيقية للشكوى من حاجتهم إلى نبش الماضي عن أسباب تثير الشعور، ولا تستند إلى حجة غير المزاعم والأقاويل. ومن ذلك نبشهم عن سيئات عبد الله ابن أبي السرح الذي ارتد في عهد الدعوة ثم تاب وولاه عمر بعض ولاياته في مصر، فإنهم زعموا أن عثمان قد ولاء القيادة لأبنة أخوه في الرضاع، والصحيح أن عبد الله بن أبي السرح كان أكفى الكفاة في قيادته، وإنه انتصر حيث قاد جيشا في البر أو في البحر، ومع الروم أو أهل إفريقية، وزعموا أن عثمان قد نقل^(٦) مروان بن الحكم بخمس الغنائم التي أرسلها ابن أبي السرح من إفريقية، وهو غير صحيح، وإنما الصحيح أن ابن أبي السرح أخرج الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فأنفذها إلى عثمان وبقي من الخمس أصناف من الأثاث والماشية يشق حملها إلى المدينة، فاشتراها مروان وبقيت من ثمنها بقية عنده فوهبها له عثمان يوم بشره بفتح إفريقية، والناس على وجل^(٧) من أخبار الغارات عليها..

وكقصة ابن أبي السرح قصة الحكم بن العاص الذي رخص له عثمان

(١) أى السريعة الحمقاء. (٢) التمحيص: الابتلاء والاختبار.

(٣) خولهم: أى ملكهم وأعطاهم. (٤) يقدحوا: يطعنوا. (٥) وهي: ضعف.

(٦) نقله النقل، ونقله، وأنقله: إذا أعطاه إياه. (٧) وجل: خوف.

فى العودة إلى المدينة بعد أن نفاه النبى ﷺ عنها، فلإنما أبى النبى أن يساكنه فى المدينة ثم وعد عثمان أن يعفو عنه، ولا حرج من مقامه حيث لا مساكنة له - عليه السلام - بعد وفاته. فقد أذن له بالمقام فى الطائف حيث لا يسكن معه وهى أحب فى سكنها وأشهى.

ومن هذه الشكايات التى يبحث عنها الباحث، أنه ولى الوليد بن عقبة لقربته ثم اتهم بشرب الخمر وثبتت عليه التهمة... فأما أنه هو الذى ولاه فغير صحيح لأنه كان مولى من قبل عمر، وأما أنه شرب الخمر فقد أقام عليه عثمان الحد وعزله، ولا يطلب من الإمام أكثر من ذلك..

ولاموه لأنه لم يقتص من عبىء الله بن عمر لقتله الهرمزان المتهم بالتآمر على قتل أبىه. وأيا كان وجه العدل فى هذه القضية لقد كان لوامه على قتل عبىء الله لو أنه أخذه بالهرمزان أكثر من عاذريه^(١) فما كان أكثر من يقول يومئذ: أن عمر قتل بالأمس وابنه يقتل اليوم، وقد كان عذر عثمان فى ترك عبىء الله أنه دفع الفتنة، فأطلقه ولما يمض على قتل أبىه أيام، ودفع الفتنة ولا رب حق من حقوق الإمام.

وذكروا أنه أبعد أناسا من الصحابة عن مساكنهم أو عن أعمالهم ولم يذكروا أنهم أغلظوا له فى القول ولم يوقروه. وقد ضرب عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص لأنه لم يقف له فى مجلس الخلافة. وقال له: «إنك أردت أن تقول: إنك لا تهاب الخلافة، فالخلافة تقول: إنها لا تهابك!» ولم يعرف عن إنسان أنه اعتذر لصحابى من الإساءة إليه كما اعتذر عثمان لابن مسعود إلى يوم وفاته، وهو غاية ما يستطيع.

وإذا كان أساس البلوى كلها سهولة الشكوى، فيومئذ يظهر بالشكوى من كان حقه أن يتوارى بها من أصحاب التراث والذنوب، ولكن سماحة

(١) عذريه: من يلتمسون له العذر.

عثمان أطمعتهم فى الظهور، وسولت^(١) لمن شاء منهم أن يجترئ عليه مع الشاكين والمتذمرين. وأعجب العجب فى هؤلاء قصته مع محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قريب عثمان وربيبه فى داره. فإن الناس قد ولعوا بالكلام على محاباة عثمان لأقربائه وهذا واحد من أقرب الأقرين إليه أقام عليه الحد لأنه أصاب شراباً، ثم جاءه يطلب منه ولاية فأباها عليه وقال له: لو كنت أهلاً لذلك لوليتك! فكان هذا زعيم الثائرين عليه فى مصر ومعه نفر من ذوى قرباه.

ومنهم من عاقبه عثمان لأنه كان يلعب بالنيرنجيات^(٢)، ومن عاقبه لأنه تزوج بامرأة فى عدتها. ومنهم من عزله كعمرو بن العاص فكان أحكم من أن يجهر بالشغب عليه، ولكنه كان يعوه جهرة إلى التوبة وهى دعوة أشبه ما تكون بالانتقام الصريح.

ومنهم من كان يزجره ولاة عثمان لأنه كان يهذر^(٣) فى الدين بما لا يعلم، أو يهذر فيه بما يعلم أنه الباطل ويضممر من ورائه سوء النية، كعبد الله ابن سبأ المشهور بابن السوداء، فقد أخرجته الولاية من بلد إلى بلد لأنه كان يقول: برجعة النبى إلى الدنيا وحلول روح الله فى على، وقد كان على - رضى الله عنه - أشد على ابن السوداء هذا من عثمان وولاته.

وبين هؤلاء الشاغبين يسمع النضح الصادق من رجل كأبى ذر يروعه البذخ والترف، فيدعو إلى التقوى والصلاح، وينعى على الذين يكتزون الذهب والفضة ويحبسونهما عن الخير والصدقة، فتحسب صيحته على عثمان، ولا قبل لعثمان بتغيير الزمن وتبديل الأوان، وقد حذر منه قبل أوانه الصديق، ثم حذر منه الفاروق وجلة الصحابة الأكرمين، ولا شىء يجنى من

(١) سولت: زينت. (٢) جمع نيرنج، وهو أخذ من السحر وليس به.

(٣) الهذر: الهذيان، وأهذر فى كلامه: أكثر.

تلك الصيحة إلا أن تملئ^(١) للشاغبين في شغبهم، وهم لا يصدقون صدق
أبى ذر ولا يتقون تقواه.

ولقد أشير على عثمان بالضرب على أيدي الشاغبين، وكان عمرو بن
العاص أول من قال له: إنه قد لان لهم في المقال ولم يجزهم بما استحقوه من
جزاء، ومن محنة الإمامة في ذلك الزمن أن يلام الإمام على النقيضين: على
الرأفة بالشاكين، وعلى أنه أغضبهم ولم يجيبهم إلى ما سألوه.

ولما جمع مجلسه للشورى كان من ناصحيه من أشار عليه بأن يشغل
الناس بالجهاد، فلم يرض أن يكون الجهاد سياسة يحمى بها نفسه ويشغل بها
الساخطين عليه..

وكان من ناصحيه من أشار عليه باتخاذ الحرس أو بالسفر إلى الشام،
فلم يقبل هذا ولا ذلك.

وكان رأى على أن يشتد في حساب الولاية، وأن يعزل منهم من نهج
في الولاية منهجا لم يكن يرضاه قبله الفاروق ولا الصديق، ولو فعل لعزل
معاوية أول من عزل، ولكن ولاية معاوية في الشام كانت أقل الولايات شغبا
عليه..

وللسائل في أمثال هذه المأزق أن يسأل: «فعل عثمان هذا أو ذلك
فسخطوا عليه، فهل يرضون عنه لو لم يفعل هذا وذاك؟».

واليقين في رأينا أن الرضى عنه في أمثال ذلك المأزق مطمع لا يبرام،
لأن أساس البلاء كله سهولة الشكوى من الدهماء، ومتى سهلت الشكوى
فالإعراض عنها محنة، واستجابتها محتتان، لأنها تغرى بالشكوى من جديد
وتزيد البلاء بزيادة السهولة طمعا في دوام الإصغاء.

(١) يقال: أمليت له في غبه: إذا أطلت.

وتحسب على عثمان أخطاء وهنات جنت ليه، وساعدت من أراد أن يتجنى عليه بالحق والباطل، منها توسعه في حقوق الإمامة، وتوسعه في معيشة الغنى بعد خليفته كانا مثالا في التقشف والرضى بالقليل، وقد توسع كذلك في تقريب ذوى قرابته واصطفائهم لأعماله وبطانته، ولم يردعهم أن يجبهوا كبار الصحابة من أمثال على وعبد الرحمن بن عوف بسوء المظنة والتهمة الجائرة، فجعلوهم فى حيرة من أمرهم: إن دخلوا فى أمر الفتنة على عزم وقوة لم يأمنوا التهم، وإن تجنبوا الأمر كله عزلوا عثمان حتى يشعر الناس بعزلته، وقد ظن من ظن بعد تفاقم الشر أن عثمان إنما صرف من تطوعوا لحراسته فى داره لأه لم يكن على طمأنينة من جانبهم، فتفرقوا وأحس الشاغبون حول الدار من تفرقهم كأنهم خاذلوه.

ومن الإنصاف له أن يقال: إن تقصيره فى حق نفسه كان أكبر من تقصيره فى حق رعيته، فقد أفرط فى المسألة واغتفر ما لا يغتفر من العدوان عليه فى حضرته، وتخرج غاية التحرج من البطش بمساعير^(١) الفتنة لأنه لم يكن من الغرور بحيث يرىء نفسه من تبعه سخطهم، ولم يكن من الأثرة بحيث يدرأ عن نفسه الخطر وهو لا يبالي أكان على خطأ أم كان على صواب.

ولا نحسب نحن من أخطائه أنه أصر على الإمامة وأبى أن ينزل عنها وقال لمن أنذروه القتل إن هو لم يعتزل: إنه لا يخلع قميصا ألبسه الله إياه، فقد عزا^(٢) بعضهم هذا الإصرار إلى وصية النبى له فى مرض وفاته، وعزاه بهم إلى يقينه من الموت ويأسه من جدوى الاعتزال على رعيته، وأيا ما كان باعته على الإصرار فهو الباعث الذى لا يعزى إلى الأثرة ولا يفسره إلا الإيثار فى سبيل ما اعتقده واجبا عليه، حتى الإيثار على الحياة.

(٢) عزا: أى نسب.

(١) مساعير الفتنة: موقديها.

ومن الفضول فى سيرة تدور على «تحليل الشخصية» أن نطيل فى سرد أحداث الفتنة التى انتهت بمقتله، وأن نحصر أسماء من تكاتبوا ومن دعا منهم ومن أجاب، فكل ما رواه المؤرخون من هذه الأحداث يدل على مؤامرة مشتركة بين وفود الأمصار، عملت فيها الدعاية والاستشارة وعملت فيها الشعوذة والضلالة المدبرة، ولم تكن قط فى مصلحة رأس من رؤوس الصحابة الكبار فيميل الظن إلى اتهامه بالتدبير، فإن الفتنة التى يلغظ فيها بالثورة على قريش لن تكون من تدبير القرشيين، وأن الفتنة التى يشعوذ بها أصحاب الضلالة ممن يزعمون أنهم من دعاة على لن تفيد عليا عند المؤمنين، ولن يرضاها على لدينه ولا لديناه.

إنما هو شغب غوغاء لا رأس له ولا قدم، ووجود التدبير وراء هذا الشغب الأعمى هو الذى يوحى إلى المؤرخ أن يدا كانت تعمل فيه لحض الشغب وإلى غير نتيجة إلا أن يفسد الأمر على الدولة الإسلامية، وتحوم الشبهات من أجل هذا حول ابن السوداء ومن كانوا يستمعون إليه من شذاذ الأمصار الذين قيل فيهم: «لا ندرى أعرب هم أم عجم ومسلمون هم أم مفسدون مدسوسون على الإسلام...».

ثم بلغ الكتاب أجله بقصة ذلك الكتاب الذى قيل: إنهم وجدوه مع غلام لعثمان يأمر فيه والى مصر أن ينكل^(١) بقيادة الوفد الذى عاد من عند عثمان..

عاد وفد مصر من عند عثمان موعودا بما يرضيه، ثم لم يلبث أن قفل^(٢) ومعه كتاب مختوم بخاتم عثمان يأمر فيه بجلد «عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن اليماني وحبسهم وحلق رؤوسهم ولجأهم وصلب بعضهم»..

(١) ينكل بهم: أى يجعلهم عبرة لغيرهم. (٢) قفل: رجع وعاد.

ولم يعد وفد مصر وحده بل عاد معه وفد الكوفة ووفد البصرة وهم مفترقون في الطريق، ولم يفت عليا أن يسألهم عن هذا الملتقى العجيب، إن صحت قصة الكتاب! ..

وحان المصراع الأليم الذي لا نحب أن نطيل النظر فيه، فإن تريثنا بعده هنيهة فإنما نترث لنستخرج العزاء لبنى الإنسان من الشر المركز في طبيعة الإنسان. . . لئن كان مصراع عثمان شرا مطبقا. لقد كان كجميع الشرور، ينطوى على خير يبقى بعد زوال الغاشية في حياة فرد أو أفراد.

كان الخير فيه ذلك الحق الذي آمن به من لا يحسنونه، فأراهم أنهم أهل لحساب ولى الأمر وهو ييسط سلطانه من تخوم^(١) الصين إلى بحر الظلمات. . .

وكان الخير فيه ذلك الإيمان الصادق الذي صمد به شيخ في التسعين للكرب المحيق^(٢) به وهو ظمآن محصور في داره بغير نصير، ولو شاء لكان له ألوف من النصراء يريقون البحار من الدماء، حيث عزت قطرة الماء.

وإن وجبت كتابة السير، فأوجب ما يوجبها أن تكشف جانب الخير في أغوار النفس الإنسانية، لا قصيدة مديح كما يقال بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور. وهذه السيرة الرابعة من سير الخلفاء الراشدين لا نسميها بالعبقرية كما سميها عبقرية عمر وعبقرية الإمام وعبقرية الصديق، لأننا لا نؤمن بالعبقرية لعثمان - رضى الله عنه - . ونؤمن في الحق أنه ذو النورين: نور اليقين ونور الأريحية والخلق الأمين. ومن أبى عليه ميزانه أن يحاكي في كلمة تستدعيها المجازاة لما سبقها من الكلمات لن ينظم قصائد المديح في محراب التاريخ، فحسب النفس البشرية أملا أنها غنية بالحق عن قصائد المديح في هذا المحراب.

(١) تخوم: حدود. (٢) المحيق به: المحيط به.

موضوعات الكتاب

| الصفحة | الموضوع |
|--------|-----------------------|
| ٣ | على العهد |
| ٨ | الفصل الأول |
| ٨ | بين القيم والحوادث |
| ١٨ | وبعد الصدمة |
| ٢١ | أسباب ولا أسباب |
| ٢٩ | الفصل الثاني |
| ٢٩ | بين الجاهلية والإسلام |
| ٤٠ | نشأته وشخصيته |
| ٥٩ | ثقافة عثمان |
| ٦٨ | الفصل الثالث |
| ٦٨ | من إسلامه إلى خلافته |
| ١٠١ | الفصل الرابع |
| ١٠١ | المبايعة |
| ١٢٤ | الخلافة |
| ١٥٢ | مصحف عثمان |
| ١٥٥ | النهاية |

obeikandi.com